

مقدمة

قلت بصري في عشرات الأسئلة المروضة على ثم قلت لصاحبي^١: انسى في كثيرى الكثيره قد تعرضت لهذه الموضوعات ، وأحسبني أجبت عنها إجابة شافية^١.

قال : لا يستطيع أن يحل الناس على ما كتبت في أسئلة محددة توجه إليك ، أعط خلاصة علمية موجزة سهلة في الوضع للطلب منك ، حتى يرجع السائل وقد أضاع الخى ليه قلبه !! وريبت قليلا ثم قلت لنفسي : إن هذا العلم خزان ، لعل الأسئلة تكون مفتاحها وما يدرينى ؟ لعل الله يؤتيني الرشيد ويهينى العراب ، فأكتف ظلمة ، أو أمحو حيرة ، أو أطلق فتنة ، أو أبيت حقاً يعصف من حوله الباطل وفرت أن أجيب بعد أن يعاقبني الله من بعض الملل .

والشرعت اكتب ، وجدت أنى قلما أكرر نفسي ، ففي هذا الكتاب حقائق جديدة ، أو أداء - أخضر وأيسر ، أو ترتيب لآلة كانت مشوشة ، فيما يقرأ الناس من علوم الدين ، أو مزاجية بين التراث القديم والمعل الحديث .

فإذا وقع بعد ذلك تكرار للكر سبق فهو معتبر إن شاء الله مع هذه الفوائد الجمة اللاحقة .

إن اللوم يتجه إلينا - نحن دعاة الإسلام - لاينا لا نعرف طبيعة العصر الذى نعيش فيه ، والناطق الذى يتبع أهله ، والشيئات التى جددت مع مدينته وبعضنا قد يحيا متخلفاً من عصره ألف سنة . يخاضم نوماً بامت ، ويتأقش قضايا نسييت ما يجب للناس أن يسموا عنها جداً ولا هو لا .. والإسلام لا يخدم بهذا الأسلوب .

وحيث نظرت في الأسئلة المطروحة على أدركت أنها وضعت بحكمة وسيفت إلى هدف ، وأن الإجابة أحسنه تعنى الثقافة الإسلامية ، ويجلو غباراً كثيراً

• الأمانة خالد محمد خالد .

١٠١. الإسلام وماذا سمي كذلك؟

الإسلام الخشوع لله ، وتسليم النفس والأمر إليه سبحانه أي إقامة العلاقة بين الإنسان وربه على مبدأ التسليم والاطاعة^(١)

قد يشعر امرؤ بأنه لا سلطان لأحد في الأرض ولسماء عليه ، وأنه يفعل ما يشاء دون ارتباط بوجه ما ، وقد يفعل هذا الشعور في تحديد العلاقة بين إنسان وإنسان مثله ، أما بين الإنسان وربه الذي خلقه بقدرة ، وربه بعمته ، وربه له طريقاً مستقيماً ولمره أن يسير عليه ... فلا مكان لهذا التمرد والشروع .

إذا الواجب أن يجعل الإنسان نفسه تابعاً لرب الله ، أو الشخص الذي يتلقى التعليمات من أعلى ويرى ضرورة التزامها . قال الله تعالى : **وَمَنْ يَسْلَمْ رَجُوبُهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**^(٢)

وماذ يمكن أن تكون العلاقة بين الخالق والمخلوق؟ بين موجود سيقضي على ظهر الأرض بفسح عشرات من السنين تقبل أو تكرر ، ثم يرجع بعد ذلك إلى من أوجدهم ؟

أفكيف علاقة تحمل أم معروفة ؟ أأكون علاقة فرد أم خضوع ؟

إنه طبيعي جداً أن يعرف الإنسان هذا الرب الكبير ، وأن يرتبط بأمره وتوبيه وأن يتوجه وفق هديه ، وفقاً لمعنى الإسلام وهو المعنى الذي قرره المرسلون .

قال تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ الْإِسْلَامَ**^(٣)

والمرء إذا يعلن خضوعه لله واحترامه لوصاياه ، وانقياد المطلق لتوجيهه سبحانه . يتحارب مع الكون كله الساجد لربه ، الهائف بحجمه في القصور بين الله يعلمون أنه أسلم من في السموات والأرض عزوا وكبرها وألوه يترجون^(٤)

ويخضع من يقطن الإسلام عبودية خاضعاً بالدين الذي جاء به ومحمداً مثله خمسة عشر قرناً ، إن الإسلام عنوان لجميع الرسالات التي هدت الناس من بعده الخليفة إلى يوم الناس هذا .

(١) آل عمران : ٨٢ .

(٢) آل عمران : ١٠٤ .

(٣) لقمان : ٢٢ .

معمداً الثاني

عن حقائق الرسالة الخالدة . إن الإسلام دين عظيم حقاً ، بيد أن الساسة الذين حكموا باسمه من بضعة قرون لم يرتفعوا إلى مستواه ، إلا من عصم الله ... وكان لذلك أثره في مسيرة الدعوة ، وإضاح مبادئها . ومصائبها هنا يجب أن يحسنه نشاط علمي دؤوب محض شجاع ، يرد التهم ويقدم المعجزة وينفع العالمين برحمته الله المهداة ، ويصل الناس بترقيم عن الطريق الوحيد الخدم ، طريق العقل الفتيح والناطق السمع والجدال الحسن .

لأنها الحقيقة أن سبق إبعاد أمروج ، وتأخر هدى مستقيم لا شيء . إلا لأن حملة هذا الهدى كسالى ، وبغير طورنا

أعترف بأنني لولا عون الله ما كنت لأخط حرقاً ، فقد حاصرني متاعب كثيرة ، وأمل أن أكون قد وقتت ، وملت ما أطلع فيه من منقرة الله ورضاه .

فانت تحس عند قراءة القرآن بالشهود الإلهي على كل شيء، والهيمنة المطلقة، فلا تَغيبُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ أبصريه وأسعياً ما تَنهَمُ مِنْ دَوْبِهِ مِنْ وَفَرٍ لا يَشْرُكُ فِي حَكْمِهِ أَحَدًا (١)

وكيف لا يسلم المرء نفسه لمن خلق كل شيء، وتدبر كل أمر، وبذلك السمع والأبصار، وقبّ الليل والنهار، وأرسل الرياح لواقع، وفتح الكرب، وأخرج الحياض من الغمام إلى البحر، وفي القرآن الكريم إكثار شديد وتضيق هائل على من ينسب لله أبنا، أو يجعل له عبيده شيئا، فقلوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ هُوَ الْعَلِيِّ لَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَ كُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْعَلُونَ (٢)

وبعد إنبات هذه الحقيقة في صحة المروفة بالله تحي، الحقيقة الأخرى... وأسماها الاقباد الخاتم لله، والاصطلاح يطاعه.

ولا يجمع الإسلام الله وتوحد عليه، أو خضوع له ورفض لأمره! فهل معنى ذلك أن المسلم لا يتورط في معصية؟ الحق أن المسلم إذا عرض له عصيان كان ذلك طارئا غير محسوب، أو عمدا اترك له صاحبه وهو كاره له أو غير مستعين لشركه، ومن ثم فهو يتخلص منه أسفاً واثماً ويحذلان... ١١.

ولبيعة النفس، وتطويف البيعة قد توقع المرء في سبيته ما، كالذي يقود سيارته أينما إلى بيته فتغفو عنه إغفاءة تقفده السيطرة على مقود السيارة فحساب هو أو يصيب غيره.

إن نور العقل قد يبكف، وطاقته العريضة قد تنفذ، وعندئذ يشرف المرء، مالا يليق، ولا يخرج المرء بذلك عن الإسلام، فإن الذين اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ غَائِبٌ مِنْ الشُّعْيَانِ تَذَكَّرُوا فَإِنَّمَا هُمْ يُعْذَرُونَ (٣) وذلك رفض للنسب استتزال اللعبة على شارب خمر أومى الإيمان إرادته ويزوره. إن هذا الشارب يخل نوعاً من العصيان أو حالة من الاضطراب غير ما يقع في مجتمع آخر يبرز اللعب وبعد المعاصر، ويفتح الحانات وينظم توزيع الإثم، ويغرض ضرائب على المتاجرة به... (١) التكليف: ٣١. (٢) يونس: ٦٨، ٦٩. (٣) الأعراف: ٣١.

صحيح أن حقيقة الإسلام بلغت غايتها، وأخذت صورتها الأخيرة في رسالة محمد ﷺ، بيد أن هذا القرآن أطلقه القرآن الكريم على ما بلغه أنبياء الله كلهم دون استثناء.

إن إسرائيل وهو لقبه الشريف لمعقوب - ليس إلا نبيا دعى إلى الإسلام وتبشّر به ومات عليه وأوصى به أولاده، فإِذَا كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِنَبِيِّهِ تَقْبَلُونَهُ مِنْ بَعْدِي فَذَلِكُمْ فَاعِلُوا إِنَّهُمْ إِنَّمَا تَتْلُونَ آيَاتِهِمْ فَاسْمَعُوا وَاسْمَعُوا إِنَّمَا وَعْدٌ يُعْطَى وَتُعْخِذُونَ (١)

والواقع أن اللدوك التي تسمى اليوم بإسرائيل اسم بلا معنى، وعظم على وهم كبير، لأن إسرائيل لا صغر أو قريب من الصغر.

وكان عيسى يعلم أتباعه الاقباد لله وصدق صديقه، وتامل في هذه الآية فَوَرَأَى أَنِ احْبَسْتُ إِلَى الْغُورِ زَيْنَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَانْهَضَ بَابُنَا مُسْمُورُونَ (٢)

ويشمل وصف الإسلام جميع الأنبياء الذين تقلدوا الأحكام السماوية بدءاً من عهد النوراة إلى اليوم. قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيهَا هَدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بِهَا النَّبِيُّنَ الَّذِينَ آمَنُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالْغَابِرِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ استحقاقاً من كتاب الله، وكأولاً عليه شهادته... (٣)

ولا يصحح الإسلام إلا باكتسار حقيقتين مهمتين أولاهما حسن معرفة الله، وتصور الأروية بأبعادها كلها، ولا يعد مسلماً من أشرك بالله شيئاً، أو نسب لله زناً، أو ظن للآل العلية متلبسة بالعلم حالة في الكون للذي نبش فيه... لا بد من العلم الصحيح بالله... وحيى من بعد ذلك الاقباد وتغلب أروبه.

وفي القرآن الكريم يقضى غامر من تنزيه الله، والثناء عليه، وإحسانه، لا إسماؤه، ليسنى وصفاته الحق، وإبراز لمعالم العظمة الإلهية لا مثل له في كتاب قديم أو حديث سمارى أو أرضي.

(١) التوبة: ٤٤.

(٢) التوبة: ١١٢.

(٣) لقدر: ١٣٢.

٢. لماذا كان الإسلام خاتمة الأديان؟

الإسلام هو الملازمة الوحيدة بين الناس وربه من بعد تلك الطبيعة ، وتكونت للبشر مجتمعات ، ويستطيع القول إن القرآن حوى جملة التعاليم التي بلتها الأنبياء الكبار ، أمي أولى المزم وحكمة الرسالات المهمة . فلو كان موسى أو عيسى موجودين لاحتجبا بما قال القرآن في ترسيخ العقائد وتثبيت الأم .

أما الشرائع الجزئية فإن الفوارق فيها ليست له قيمة كبيرة .

والإسلام الذي يلفه محمد وأخذ الناس به هو الصورة الأخيرة للوحي الأعلى ، وهو كذلك الصورة العامة التي تستغرق كلها وتتجاوز الأجيال التي تسكن الأرض حتى قيام الساعة . . . النبوات السابقة كانت كلها محلية مؤقتة أي محدودة الزمان والمكان ، أما النبوة العامة . . . فهي نبوة محمد وحده لا يشترك في ذلك نبي من السابقين .

وملة ذلك أن الإسلام بعد ما زود الإنسان بالوصايا الأخيرة للوحي الإلهي وكل إلى عقله أن يتحرك ويشق طريقه ، ويستغل قدره على الفهم والحكم وتعرف العرب والعلماء . . . فانتهاه عصر الوحي هو ابتداء عصر العقل ، وقد شرعنا ذلك بتفصيل في كتابنا وفقه السيرة .

إن نبي القرآن عليه الصلاة والسلام أرسى دعائم العقيدة والعبادة والخلق ، وساق شعورا حاسمة تضيء سيرة الزور وتعالج الجماعة ، وهذه أسس وتوجيهات لا تختلف باختلاف العصور ، ولا يمكن اختراق أسرارها .

أما وراء ذلك من شؤون - وما أكثره - فهو ذك إلى العقل الإنساني يحو فيه وبشيت . . . في ميدان العلم والأنشطة الأرضية وشؤون الحياة المادية والأطوار الحضارية يقدر العقل على الحركة دون قيد يقضيه الدين . وفي كل المجالات التي تتحدد فيها المبادئ وتتحرك الوسائل ، يستطيع العقل أن يتعرف دون عائق .

فالشرى مثلا مبدأ ديني لنع الاستعداد السياسي ، وبتع عبادة الزور ، وتكون الأمة من فرض ، وأنها على ما يقتضا .

والعقل له أن يفتح من المسائير ما يحقق هذه الغاية .

المبارك بعيد بين مسيح لا يرى الله حقا ، ولا يحى في عمله جرما ومعل خارت قواه فسقط ، الأول محرم لا مسلم والأخر مريض تلتبس له العافية ، وبحسب بين أهل الإسلام .

وقد استطاع نص الإسلام تكوين أمة مسلمة لله ، تنفخ للصلاة له من طلع الفجر إلى غسق الليل ، وتزد على المساجد في رتبة وقفة يكن أن تضبط عليها الساعات .

كما أن هذه الأمة التزمت في شتونها للدين والعسكرة والتفانية والسلبية أن ترضى ربه ، وأن توجه وفق مراده ، بعرض وإخلاص .

قدومها الأولى والأخيرة إسمان تجرد للحق وأصبح من أقاصي قواذه إلى أمر الله له ﴿قُلْ إِن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ (١) لا شريك له وبذلك أوتيت وآيات أول المسلمين ﴿٢﴾ .

وذلك وعى أتباعه هذا القسم المؤكد ﴿ولا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ (٣) . . . إن خضوع الإنسانية لمبارها الأعلى صدق وشرف ، وملا هو الإسلام .



والعدل مبدأ ديني لمنع الانقياد والظلم . وللعقل أن يشرع من القوانين وينشئ من الأحكام ما يحقق هذه الغاية إدارياً واجتماعياً واقتصادياً .
 والجهد مبدأ ديني لحماية الإيمان وكبح الفتنة ، ووسائل الجهاد في البر والبحر والجو لأحضر لها ، والإبداع العقلي في هذه الميادين لا حدود له ... بل إن شرائع العقوبات الروية تركت أغلب الجرائم للاجتهاد العقلي ، مثل القتل والعصب والتهديد والربا والحياة والاختلاس وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف ... إلخ .
 وقد تشنا أحوال تعين على العقل أن يعالجها ويرتب آثارها ، لأنها لم تعهد من قبل في عبود الأنبياء ، لا أقول مثل غزو القضاء وحرب الأتصار الصناعية ، بل في نشاط الإنساني العادي على ظهر الأرض ، فقد جعلت قضايا خطيرة جعلت الحكومات تقرر سلطاتها على نعوام يعرف في تاريخ الحياة البشرية من قبل ، وما يتم هذا العلاج إلا بالعقل البسيط ، مع استصحاب هذا العقل لروح الإيمان وتبني الله .
 إن الله لا يعجزه أن يرسل نبياً آخر ، لكن هذا الإرسال سيكون عبثاً إذا كان عمل النبي الملقب قطرة من البحر الذي سبقه أو ترسماً لخطاه أو تكراراً لما قاله ... ومن ثم اكتفت الأقدار بكتاب محمد وحكمته في قيادة الإنسانية إلى آخر الدهر . ولو أن قوة الإسلام من أمراء وعلماؤها واجبهام بأمانة ما كان هناك دلع لهذا السؤال : لماذا كان الإسلام خاتم الأديان ؟

فإن هذا التساؤل تولد من الفراغ والقصور المحوطين على الحياة الإسلامية العامة ، وبخاصة في العصور الأخيرة .
 من القطع به أن الأمة الإسلامية فقدت القدرة على قيادة نفسها بسبب فسادها الشقاقى والسياسى فكيف تقود العالم ؟ أو كيف تقدم نموذجاً اصلاحية الإسلام الأبدية لقيادة العالم ؟ .
 إن أصحاب العقول يرفضون أن يشد العالم إلى وراء وأن توضع قيود على حركات الفكرى والحضارى ولو كان الإسلام مسلماً رجعياً ، أو توقفاً حضارياً لرفضه ديناً يرمى بآياته بل دين يرمى بالمالين .

لكن فقهاء الإسلام الحقيقيين قالوا : حيث تكون العدالة والرحمة فهم شرع الله حيث تكون الفضيلة والخيرة والصلة فتم شرع الله !
 وماذا يشد الناس إلى آخر الدهر غير هاتيك العائات ؟
 إن اختلاف الليل والنهار لن يقلب حقائق الأشياء ... فإذا كانت الوحدةانية صفة الله فإن هذه الصفة لن تتغير ولن تزول مهما طرأت موائب الزمان .

وإذا كانت تبعية الإنسان لربه حقاً لا معدى عنه ، فإن تقدم الحضارة لن يعنى أبداً أن الإنسان استغنى عن الله والصلاح والفرقة إليه .

وقل مثل ذلك في ميدان الأخلاق ، والعلاقات الإنسانية كلها .

ويوم ظن أهل الكتاب أن الدين عزاز وراسم وأوامم مقدسة قبل لهم : كلا ، الدين ارتباط بالله ، وإحسان للعمل ، ولئن يضام أحد أخلاص لله قلبه ، وأصلح له عمله ، واستقام على الطريق . . . وقالوا : لم يكن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (١) بل من أسلم وجهه لله وهو محسن لله أجره عذبه ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢) .

لماذا لا تكون هذه الحقائق ختام الدين كله؟ رب العالمين يقول للناس في القارات المعمورة من أرضه ، انجهوا إلى مخلصين ، واحسنوا كل عمل تكلفون به ، وتظفروا بالأمن وتتجروا من الحزن وتكسبوا الدنيا والآخرة . . .

ماذا بعد هذا الكلام؟ وماذا يقوله نبي آخر بعد محمد عليه الصلاة والسلام؟

على أن هناك شرائع تفصيلية تربط بهذا الأصل ارتباط الشجرة بجذعها ، ولا يقبل الإهمال لهذه الشرائع الفرعية !

غير أننا نلفت النظر إلى أمرين مهمين : الأول أن تفكير المسلمين لأن أسلم بدع وخزوات أدخلت على دين الله وهو منها برىء ، وبرزت هذه الأهواء الدخيلة في أعمال المسلمين أكثر مما برزت معالم الدين الحق ، ومن مصلحة الإسلام لكي يبقى أن يبقى من هذا الغش ... !

الثاني أن الترتيب القروض بين شعب الإيمان سرت فيه القوضى ، فتحوّلت أركان إلى ترافل ، وتوافل إلى أركان .

وامتدت خيمة الغيبات لتشمل أموراً عقلياً لها منطقها الخاص ، وتبعته أحكام الحلال والحرام تقاليد بعض الأجناس التي اعتنقت الإسلام .

والمعروف أن الحكم الشرعى هو خطاب الله بالتعلق بأفعال المكلفين ، فلا حكم حيث لا خطاب .

إن الإسلام كان ولا يزال الدين الذى يرضاه الله لعباده إلى اللقاء الأخير . ومصلحة الإنسانية فى استمساكها بهذه العروة الوثقى .

(١) البقرة: ١٧٧ - ١٧٨ .

إن هذا الإنسان يكفر ويكفر، ولا يرضى بالدخول في هذه الدائرة المزعجة... ومن السؤال عن محتته؟ ساسة جبارة لا دين لهم استغلوا فتانين عن الإسلام بأسلوبهم في الحكم.

وهناك مستغلون بالعلم الذين يقدمون الإسلام على أنه حسن وتجميل للمرأة، ويجهلون في تقرير أحكام تظهير النساء، وكأنهن جنس مهدر الحقوق، محقور البداية مغموض لفضل يستغرب وجوده في مبادئ العلم والحيادة والجهاد، بل يستنكر عليه أن يقود سيطرة.

لا جرم أن النساء في شقوق العالم وفيه تأتي اعتناق هذا الدين وتزوي الحكمة في تحنيه... ويأزوهن في تلك ألوف لرجال الشبهة.

إن فتنة الناس عن الإسلام بهذه الطريقة هي شيء محزون حقاً، وكثيراً ما أذكر قصة البدي الذي قال: «إني عرض بآلتي في السوق بدمهم واشترط أن يباع موهبها معها بعشرة آلاف... فكان الناس يقولون ما أرخصها لولا هذا اللود المعلن».

أجل وما أسهل اعتناق الإسلام لولا هؤلاء المعلنون عليه للاصقون به.

نساء بعدئذ: هل الشخص الملتحق الكافر بالله وإقائه زوجته يمكن أن يكون سويًا وشيئًا؟ ويجب: إن مثل هذا الخلق مصاب يقينا في بصيرته وسيرته، وإكذاره لربه الحش من عقوب الولد لا يبه البر لرحم.

وقد كذبت له موهبة علمية، لكن ذلك لا يرفع خبيثته، وقد حكمت الولايات المتحدة بالإعدام على عالم بالذرة أنقى أسرار عمله للروس، إنه أحد من كبار الجرمين لأنه خان وطنه ووفوه.

وما الرضى؟ فتحة من الأرض. وما القوم؟ قليل من الناس. فكيف بين ختان رب الأرض وسماه ورب البشر كلهم؟ إلا يعد مجرمًا؟

إن عظيمة موهبة ما لا تنفي الإصابة بعقل مهلكة، فقد يكون الر حاد الصغير جثًا، ولكنه مصاب بسرطان يوشك أن يخترق عمو ويورث الهالك، فما غناه بصرو القوي مع عنه الجسيمة؟

والشخص الذي يرضى موقرة الله ويتقيد بدينه مهما نفع في أمر ما، فهو معتل الضمير: «نفع التنكير» مخوف السوء على الأقربين والأبعدين، بل هو إلى الحيوان أقرب منه إلى الإنسان.

٣. هل يستطيع الإنسان السوي الرشيد أن يعيش بلا إسلام؟

لو كان الدين غاية لأرت العيش بلا دين، ولو كان حرجا على النفس أو قولا للندبة، أو سطوة عنصرية لأرت العيش بلا دين، لكن الدين ليس كذلك، بل هو مخاصمة لكل ذلك. إن اللاحدة غفلوا خطفا قسحا بين الحق الذي تول من عند الله، وبين الباطل الذي صنعته البض من عند نفسه وزعم أنه دين.

ومن عرض باطلا ما على أنه دين فهو كافر، والكفر بما عرضه واجب.

والناس في عصرنا هذا فروقا مجاثبون، منهم من يتنكر للأوجه ويصور العالم لا رب له. ومنهم من يعترف اعترافا غامضا بالألوهية، ويحسب الأديان الكبرى متساوية النفع والقيمة. ومنهم من يعتنق اليهودية أو النصرانية، ولا يرغب عهدها أبدا، ومنهم الوثني الملتق ومنهم المسلم الذي رضى بالله ربنا وبالإسلام ديننا ووجدنا نبيا ورسولا.

وفي السلمين غوغاه حين وقع ما دروا من سنن وبلغ ولم تجعل وهدي وهدي. وفيهم دعاة إلى الحق الذي يفتله السلف الكبار، ثم استوحش قليلا وكثيرا مع مسيرة التاريخ، ثم أسس غريبا في هذه الأيام.

ومشكلة الدعوة للمسلمين تحي من الصورة التي يظهر بها الإسلام في العالم الإسلامي، وتعمل الود السوي في بلاد أخرى يفر منه.

قلو أن رجلا يعيش في بلاد حرة، يناقش فيها الحكومة دينا رية، ويعترض رئيس الدولة ويحاربه دينا تلق، شمسلا كان يفعل المسلمون قديما مع أبي بكر وعمر، لو أن هذا الإنسان قيل له: «تعتق عقيدة التوحيد فهي حق، ولكن إذا قلت للمحكم: لا، ربيت في السجن أو ضرب عتاك!!

أحسب هذا الإنسان مسلمًا؟ كلا وإنما يفرقه بالدخول في دين يقدر الحاكم فيه على تدمير مدينة وفي ثلاثين ألفا تحت أنقاضها، ورضي بعد ذلك مهيبا مصرونا توجل وسائل الإعلام الغربية والبيجة من تناوله.

والجاهل لا يوصف بأنه امرؤ سوى ورشيد، قد يكون الجاهل عبثاً يسقط المسؤولية الأخلاقية عند مخالفة القانون، ولكنه لن يكون متقياً تزيين صاحبها... إن هناك يهوداً يصدقون أن الله صارع أباهم إسرائيل وكاد يهزم أمهم. ونصارى يصدقون أن الطفل يولد وهو حامل للجنة الخطيئة التي اقترفها آدم، وإذا لم يعتقد أن عيسى صلب فداه له بآه هو الآخر باللعنة الأبدية!

فليعتقد من شاء ما شاء، ولا يتناول فوق مكانته، ولا يتعرض بالكذب للإنسان الذي جاء ينقذ رسالات السماء ما أهانها، والذي جاء في كتابه هذا الشريعة لكل شارد: ﴿وَأَمْ تَبْشَأُ فِي صُحُفٍ مَوْصًى﴾ (٢٧) و﴿إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٢٨) تَرْتَدُّ زَائِرَةً وَزَيْرَةً أُخْرَى (٢٩) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٠) وَأَنْ سَعْيُهُ مَوفًى يَوْمَ (٣١) ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى (٣٢)؟

إن جرس هذه الآيات الموجزة يبعث دقات رهبة الرنين تشير الحذر، وتوقظ الانتباه أو هي ومضات منقطعة تلقت السائر في الدرب المشابه كيف يعرف هدفه ولا يشبه عنه.

إن الجاهل بالإسلام نقض شائئ، وما يستطيع أحد الاكتمال بدونه، وكيف يتزكى امرؤ استغنى عن توفيق الله وهدايته، وشارته ونلارته، لم يُزَلِّبْ قلبه لحظة خشوع، ولم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين... ٩٩.

وعبادته لهواه تجمله مشغولاً على نفسه ومن اقترب منه، وقد يعاقبه الله في المعالجة فيجعل ذكاه ضله، فيبحث عن حقه بقلبه ويحرق قبره بيد.

وقد وصف الله سبحانه عبيد أرواحهم الكافرين للاستغناء به، والاستعداد منه فقال: ﴿وَأَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٣٣) ثُمَّ نَحْسِبُ أَنْ نُحْكَمَ بِمَا نَسْمَعُ أَوْ يُعْطَلُ عَنْهُ مَنْ هُوَ إِلَّا كَأَلْفَامٍ مِنْ قَوْمٍ أُخِلَّ سَيْلًا (٣٤).

ولقد رأيت في أرجاء البلاد العربية أناساً ينتمون إلى العلمانية ويستعدون بعنف كل أداة للإسلام في ميدان التربية أو القانون أو الثقافة أو التوجيه.

وتفترست في وجود هؤلاء وأعمالهم، فما رأيت صحة نفسية ولا دقة عقلية، فيهم مسلمون - كما يقال - يكرمون ما أنزل الله. وفيهم كتابيون ينضمون إلى كل جبهة تخاصم الإسلام لكي يكرروا السواد وشيعوا الأحاد، ويظهرون - مع ذلك - بالجهالة!

ويستحيل وصف أحد من هؤلاء بأنه إنسان رشيد، لأنه لو كان ذا نزعة قوية مجردة لعلم أن نبي إسرائيل سلموا بعقيدة مهاجمة، وسياسة جعلت الدين يغتصب الأرض والعرض، فكيف يقبل الدين المهاجماً وترفض سياسته وتحرم سطوته؟ ويرفض الدين مدافعاً ويعتبر إشراكه في التربية والتقوية سياسة رجعية مرفوضة.

الآن الدين هنا هو الإسلام، ولأن الدين هناك هو اليهودية! لا سياسة في الدين إذا كان إسلاماً يدافع، وتقام الدول من الهباء إذا كان الدين صهيونياً تطوّر وتوصف السياسة هنا بأنها حكمة وتقدم؟؟

على أنه ليس من الحصافة والرشد رفض نبوة محمد، وكراهية هذا الإنسان العظيم والشامل عليه، إننا نتضحك من إنسان يرى أن الأرض كوكب مثلك أو مربع، أو أن موسى عليه السلام ولد في الولايات المتحدة. فكيف لا نتضحك من شخص يرى بوذا إلهاً ومحمدًا قاطع طريق؟

وكيف لا نتضحك من شخص يرى الإسلام عبادة أصنام واستباحة أعراض ولا يعرف دين توحيد ومغلق؟ إذا لم يكن هذا الشخص مغفلاً، فهو جاهل بلا رب،

حد شهادة التوحيد ترجمة من الإيمان القائم في القلب ، والإيمان معرفة بليغ حد
والذين لا يصدق حاتم لا يحمل البرية ، واتقاد لله لا يقبل ذرة من نوره .
عندما يشهد البر لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقد أعلن الناس رب
عالمهم بالله ارتضى هذا الدين ، ولزم منهجه ، وتبع قائمه

والاقتبال هذه الشهادة من تأملها ما لم يكن لها رصيد قائم في القلب ، ومجهن
على باطن النفس ، ورضي هذا أن يكون المسلم فاضحياً برؤى الدنيا ، وبأرضي
موقفها ، وحضر ربه ورضي عقوبته ، لأنه يفتقه قوله سبحانه : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَخَدُّواْهُ ﴾ (١) ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ فَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُهُمْ ﴾ (٢) ﴿ وَأَنبَأُواْ
بِآلِهِمْ وَأَجِدُواْ فِيْهَا قَارِعِينَ ﴾ (٣) ﴿ فَلَا تَخْضَعُواْ خِيفَةً إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٤)

كما يعني هذا أن يظهر المرء دينه وأفعاله وأن يستند بساعد الضمير ، واستند أقامه
وظم بأسمهم ، وبذلك حقيقة التوكل المتعبد على الإيمان بالله الكبير ، إنه يقضي
العبرة الحاضرة بالإرادة المسحبة ﴿ وَاعْلَى اللَّهُ فَتَرَكُواْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٥) ﴿ إِنْ
يَعْبُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا عَاقِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْلُقْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ

قَلْبُ كُلِّ الْوُجُوهِ ﴾ (٦) .
والإيمان مصدر ولا إخوان المعينة وسخط على خصوم الحق ، فالوحدون يحجون
الله ويعفون الله ، ولا يكونون أدنياً أبداً ولا أنبياءاً لاهل القسوف والإحاد . ﴿ وَوَلَوْ
كَانُوا يَدْرِئُونَ بِاللَّهِ وَالَّذِي أَمَرَ أُولَئِكَ مَا اتَّخَذُواْ آلِيَاءَ ﴾ (٧) إن شهادة أن لا إله
إلا الله وأن محمداً رسول الله رمز لعلمان نفسية بالغة الأثر في توجيه المجتمع كله .
ويحیی بعد الشهادة إقام الصلاة ، إنه ليس أغدر من إنسان يسمح لورثه يقدره الله ،
وأيكل وشرب من خير الله ومع ذلك يفسن على ربه بساعات قاتلة يتكبر فيها .

إننا نتفق لكثير من أوقانتنا في ليلو وللمب ، وستكثر لحظات تنفق خلالها أمام
الله متعدية . . . والندنية الحظية مسئلة عن السمار الذي أنزل الناس عن كل
شيء إلا عتاده غرائزهم ، إن المرء يتطلق وراء رذعه اعتلاق الوحش في البرية لا يبعث
حتى يتغير بترسسته ، ثم يعود يلعنهما هو وأسرته ، ثم يتطلق ليلها في يوم جديد .
(١) النحل : ٥١ . (٢) النحل : ٨١ . (٣) النحل : ٨١ . (٤) النحل : ٨١ . (٥) النحل : ٨١ . (٦) النحل : ٨١ . (٧) النحل : ٨١ .

٤. كيف ينبغي الإسلام على خمس؟ وما هي؟ ولماذا خمس بالذات؟

شرحنا أن الإسلام هو العنوان المرفوع للدين الذي جاء به خاتم الرسل محمد
ﷺ ، وأن الأنبياء الأوابل بانلوا حوراً محدودة لهذا الإسلام تنسب مدارك الأمم
الأولى وقد ارتقاها قائلين في الحقيقة واحد ، يشبه إنساناً في فترات القسما
والنفاة . . . ثم اكتمل هذا الإنسان وزلج أشده ، اكتمل معنى ورضي ، ذلك هو
الفرق بين الرسالة الإسلامية كما بلها النبي الأخير وطمه الرسالة كما بلها في
فجر الحقيقة رسولون محليون محدودون . . .

وبناء الرسالة على خمس يحتاج إلى إيضاح فإن شعب الإيمان ومعلم الانتقاد
إلى الله تقارب السبعين نصيراً .

ومنه المناظر السبعون مبنية في كتاب الله ورسة رسوله ، وهي تتناول الفرد
والجميع والمردة ، وتوحي قديماً خلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية كثيرة
من أجل ذلك لم يقل الرسول ﷺ : الإسلام مؤلف من خمس أو يكون من
خمس ، وإنما قال : دینی علی خمس .

فهو يشبه الخمية التي يقسمها أخوة في رحلاتهم ، والخمسة تقوم على عمود
أساسي في وسطها ، وأربعة أعمدة غد جوارها وثبتت فداشها

وأنت تعلم أن جسم الإنسان يتكون من أعضاء وعضلات وأربطة وأعصاب
ونظام وحواس . . الخ ومع ذلك فهناك عدة أجهزة رئيسية هي دعائم هذا
الكران الدقيق أحصاها علم الأحياء في (١) : الجهاز العصبي (٢) : الجهاز الدوري
(٣) : الجهاز الهضمي (٤) : الجهاز التنفسي (٥) : الجهاز التناسلي والثنوية بهذه
الأجهزة وظائفها ينبغي قية ما يتكون لجسد الإنسان منه . . .

والخمس التي عليها الإسلام هي : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً
رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج البيت . . . الخ .
هذه دعائم إيمان ودعائم آييت غير جذابة ورسقه وأربابه وتؤلفه ومراقفه . . الخ .

النفرة؛ كرسائل الحفاظ على الشخص أو النفع من الملائقة ولستر وظل المرتق وانغلاء النسل من طريق شريف، وكالجهاد دفاعاً عن النفس أو لمريض أو الحق كذب كائن.

ومنها ما يرجع إلى الصالح التي تدركها العقول وتهدى إليها التجارب كقوانين المعاملات وأداب الاجتماع والصدق والوفاء بالعهد والإحسان في الحكم، وبذلك العون للمحتاجين والمودة في الغير والحرب على أيدى المفسدين ..

ومما لا عريان لا يحد الاستمساك بهما قليلاً على إسلام صاحبهما، فقد يستمسك بهما من على دين باطل ومن لا دين له أصلاً، استجابة منه للدواعي العظيمة والعقل دون نظر إلى توجيه مسأوى ..

بقي قسم العبادات وأغنى بها الأمر التعبيرية التي لها رسوم وأوضاع دينية خاصة لا يهملها إلا غير ذوي العقول، كالصلاة الغدودة بأوقاتها وأصداها وهياتها، وكالزكاة الغدودة بأنواعها وأنصبتها ومقاديرها وبرائتها، وكالصيام الغدود بزمنه وكغيبته وكالحج، والأضاحي، والكفارات ونظام الثواب، ولعمقوت القدرة المعروفة بالحدود، ونحو ذلك من الأمور التي لاحظها للاجتهاد في وضعها ولا في تبديلها وتغييرها مهما تغيرت الأحوال والمعور.

فهذه الأمور جدلية بأن تسمى رموزاً دينية، وشعائر إسلامية؛ لأنها لا يتجاوز فيها مع بقاء الدين باعث آخر من غرائز النفس ولا هدايات العقول، ولذلك لا يشارك المسلمين فيها أهل دين آخر بصورتها الرمزية في الإسلام.

لكن منها ما ليس بواجب طبعي عينا كالصحايا، ومنها ما لم يقصد وضعه ابتداء بل علق على وقع شيء من الخلق لتعليم الدين كالحدود والكفارات ..

على أن الحدود ونظام الثواب - وإن كانا تعينين - إلا أنهما من الأمور الموضوعية لإقامة مصالح الدنيا المقصد الأول، وقد تأخذ بهما من ليس على هذا الدين لا فيها من النامية للعقول .. فلم يبق من فروع الدين ما يصلح أن يكون أساساً لتعمائر الذين سوى الأركان الأربعة المذكورة في الحديث - مع الشهادة - لا أنها شعائر ظاهرة خاصة بهذا الدين وحده وأجبة وجوباً عينياً، مقصودة للخارج فضلاً أولاً، وموضوعة لإقامة مصالح الذين أولاً وبذلكذا، ومصلح الدنيا ثانياً وبالعوضاً أولاً، فكانت لها الصدارة على سائر الفروع، حتى نظمت مع الأصل الذي هو مبدأ الإسلام - يعني الشهادتين - في سلك واحد وصارت القواعد خمساً ..

وهذا الكلام للعامة لفتح ديار من خير ما قيل في شرح بناء الإسلام على خمس.

وكلما دللنا على حتى يتبين عموماً وهو يلهث وراء مأواه وحدهم لا يعرف له ريثاً ولا يقوى له حيلة ما ألقه هذه الحياة، وما أسوأ عقابها ..

أما المسلم فهو بين الدين والدين يعرض إلى داعي الله يعترف بصوت جبهير الله أكبر الله أكبر، فيبلى النداء، ويذكر الكبير ويسعى للوقوف بين يدي ربه قائلاً عاشت.

في الصلاة إلى الحياة الإسلامية ليست عملاً ثورياً يعتم به صاحبه وحسب، بل هي رسالة اجتماعية تسيطر على جمهور المؤمنين وتنفهم إلى الخلاقي في محراب العبادة جماعات متكررة في الغفر إلى المشاء.

ومن هنا جاء التعبير بإقام الصلاة لا أداء الصلاة، إذ القصور إيجابها في جماعة، ولتشديد لها، واخترع فيها، وأطارد شعارها. إيماناً له، وإثراً لقله تبارك اسمه.

وتزجج الكلام في الركاة والصيام والخرج إلى مكان آخر، وتنتحدث الآن من الأركان الخمسة جعلت لنا كانت خمسة.

تري لو كانت أربعة أو ستة أركان للسؤال ينتفي؟ لا. والسؤال الدائر يستط من ظناه نفسه، مثل لماذا كان اسم فلان زيدا ولم يكن عمراً، إنه سؤال يتسل إلى ما لا نهاية فلا معنى له .. ومع ذلك فهناك إجابة مقنعة في هذه القضية قدمها الشيخ الكبير للدكتور عبدالله دوازتور على هذه العبادات خاصة هي شارات الإسلام ومعلله التي تميزه عن غيره، وإنك غير قد تقوم به يهود أو مانويون، كمكادام الأخلاق متداخلة وقد تكون هناك عبادات إسلامية مضمرة لكنها دون هذه الأركان في الدلالة والقيمة.

وتظل من قافة الرجل لماكي رحمه الله. فبعد أن تحدث عن الإيمان وأنه عصب الحياة في الدين ومصدر لقائه الكرامة في أعماله كلها تساد عن الصلاة والركاة والصيام والخرج إلى مكان ذكرت دون شعب الإسلام الأخرى فقال: - لأنها أعظم الظاهر وأوضح المعاني على الإيمان بهذا الدين من حيث هو دين مسالم - لا فيها من الاستسلام الأمر إلا مجرد أنه أمر قد قصد إلى مصلحته عاجلة من الصالح - فإنه في الاستقامة، أما ما عداهما من الأعمال فليست لها هذه الترتي في الدلالة على الإتهام الإسلام.

ذلك أن الفروع الدينية لها ما يلبس لا الملاح لنا عليه كالأخلاقي والترك والوضا، وجمحة الخير والغير ومساوياً يبحث عنه علم الأخلاق، وهذا لقسم لا يصلح شعاراً ولا علامة ظاهرة للمسلمين فضلاً عن أن يكون أساساً لتشي العبادات والمعاملات ..

أما الأعمال الظاهرة: وفي الشريعة فنانع، ومنها ما يرجع إلى الصالح التي تقضيها

لآخرين .. كما رأيت أنثاشا في مشاعرهم لطف ، وفي مسألتهم إظهار لكن يشيئهم
تصور علمي وفقه قليل في شرايع الإسلام .

كلا الصنفين مسمي ومقصرا والمواقع التي لا قلب له كاشاشر الذي لا
ويحى له ، بلاه على الإسلام وعائق عن الانتفاع به ..

فالذين عقل وعاطفة ، وعلم وأدب ، ونظر صائب ، وصيرة نيرة .

ومن سوء حظ الثقافة الإسلامية فقهاء لا دراية لهم بعلم القلوب ونهج التربية ،

ومقصرون صغر الأيدي من قوانين الشريعة وضوابطها

والراستخون في العلم سالكون من هذه الأوقات ، ومن قيراً لابن تيمية وابن القيم

والغزالي وابن الجوزي والرازوي وغيرهم يرى رجلا على درجة رفيعة من جيشان

الناشر والاستثمار العقلي .

واسمع للإمام الملقق ابن القيم وهو يعلو النفوس إلى الدار الآخرة ، ويقول لكل

سائر على الدرب :

فصلى على جنات عدن فإبها مازالك الأولى ، وفيها الخميم

أو إلى أبي حامد الغزالي الذي أشرف على تفكير أسطر وأفلاطون ، واستبان عثرته

وكشف ما أضح منه ، ومع هذا الاستعلاء العقلي فهو يتحدث عن استئلمته للذكر الله

حتى إذا سكت لسانه غل القواد على حلقه يلجج ويرود لا يتقطع له صدى !!

وعندى أن تغشوات مولا ، الأحلام في آرائهم يرجع إلى تغشوات الملل التي

عالبوها ، وتخصيص الأسباب التي أدت إليها ، فلك إلى جانب ما بين طابع البشر

من خلاف في الأذواق والأفاق .

والغدير القبول ، بل المطلوب ، من التصوف يكون في المبادئ الآتية :

أولاً : في دراسة البواعث النفسية وفرض رقابة صارمة على بواعث العمل حتى

تصفو النية من كل كدر وتخلص لله سبحانه .

ويلاحظ أن النفس الإنسانية شديدة المكر واسعة الحيلة ، وأنها قد تحقق ما

نهوى عن طريق ظاهره الطاعة ، وباطنه إشباع الهوى ..

ثانياً : التمسك بعظام الإحسان ، وطول البقاء في نطاق أن تعبد الله كأنك تراه

فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ولا يتم ذلك بتأني نفعي في خاوة بعيدة ، وإنما يتم مع التسلب في البلاد
والعرض للندة والرخاء والصحة والبرص والصبر والهوية .. الخ .

ثالثاً : تتبع آيات الله في الأنفس والأفاق ، ومدايرة الحاضر والماضي ، ومحاولة

الارتقاء إلى مستوى للكتاب الكريم والسيرة الشريفة ، فإن الأبواب كلها موصلة أمام

من حرم أناس محمد ﷺ ، فهو إمام الأقباء وسيد المرين ..

وفي هذا المجال أذكر أننى أجدت إعادة عظيمة من ابن عطاء الله السكندري ،

وقد شرحت جملة من حكمه في كتابي «الجانب العاطفي من الإسلام» .

وأذا كان سعد زغلول قد وصف أدب «الرافض» بأنه تنزيل من التنزيل ، أو قيس

من نور الذكر الحكيم فإنى - مع إكبارى للرافض وأدبه - أرى أن كلمة سعد أصدق

ما تكون في حكم ابن عطاء الله رحمه الله . وأعرف أن أنثاشا سيتقولون إننى

خلطت بين تعاليم الإسلام وشمالا الأتقياء من ناحية ، وترتد الصوفية وتعاليم

رجالهم من ناحية أخرى .

ولو صدق مولا فيسكون الخلاف على أسماء لا على مسميات ، ويكون

سهلاً ، واللهم أن تتوقد روحانية الإنسان من خلال كيانه المادى ، وتشرّب عواطفه

إلى السماء بدل أن يخلد إلى الأرض .

وأن يطالع أمجاد الأروحية فيما يرى ويسمع ، ويتجافى عن دار الغرور ، وعطش

إلى دار الخلود .

٦. ما موقف أهل الكتاب في الإسلام؟

كان من الممكن يتجسس العقل والصليحة - ترك الإسلام يعرض نفسه على الناس ، وهو لا يملك سلاحاً إلا الإقناع الجرد **﴿وَأَنْ يَدْعُوَ تَدْعُوَةً نَسِيَةً خَافُذِ الْأُذُنِ رَبِّهِ سُبُلًا﴾** (١) ومن لم يها عليها وشأتنا وبذعه وشأنه .

وتدبر هذا الترجمة الأولى **﴿استجيبوا﴾** أي قل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما أنكم من مثلياً يؤيد ، وما أنكم من تكبر **﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ خَفِيفًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾** (٢).

فانرضي الإسلام من كرهه ، لمن يحاول إكراهه على شيء . إن الذي صليح وحسب .. لكن أهل الكتاب وقفوا في جهة واحدة مع الوثنيين يعرضون للذين الجليل ، ويعرضون هوانه ولا يأنذرون له بالذور ..

فإذا التفتيح بالإسلام صدر ضلالت لذلك صدهم وقبوا لصاحبه أن يترد إنياته الجليل إلى جانيه القديع **﴿وَدَعْ كَيْدَ مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا خَصَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاصْبِرُوا وَأَصْصِقُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ...﴾** (٣).

والغريب أن أهل الكتاب بعد خمسة عشر قرناً من مطلع لرسالة الخاتمة لا يزالون كما هم ، لم يثربوا إلى رشدهم . تهدد القساعات المادية وجودهم ، ويتخلف الإخلاء الأحمر على حصارهم ، ويبدل أن يتعاونوا مع المسلمين على مقاومة الظلام القليل ، يتعاملون كل شيء ، إلا ضرورة القضاء على الإسلام وإبادة أمته ..

سمت واثقا من أهل الكتاب يقول : من الصعب تصديق رجل مولع بالناس ، تزوج تسعة منهن ، من الصعب تصديق أنه شيء ..

قلت : ومن السهل التصديق بشيء رجل زنى ببياته وهو مخمور ..

ومن السهل العنق بشيء رجل زنى بأخفى قرياته خدافاً أو اغتصاباً . ومن السهل التصديق بشيء رجل تصحبه امرأة مجاهد في سجن الله ، فيستقمها ويضع خطه لقتل زوجها حتى ينفرد بها ..

(١) التوبة : ١٠٩ . (٢) التوبة : ٤٨ ، ٤٧ . (٣) التوبة : ١٢٩ .

إذا تحدثت ، أنا المسلم المخرج في هذا العصر - من أهل الكتاب ، شعرت بظلم قوى القوي وقدر حزنه في النفوس . وشعرت بالدمعة للضعف التي أكلها القوم ضد محمد وكتابه ورسالته ، وما كان ينبغي به أن يقابل الإسلام بكل هذه البغضاء ، ولا أن يبقى شيء من هذا الكبر .. بهذا الحديث عن أهل الكتاب مفرقاً بحسن الظن ورجاء الخير من جانبهم ، وانتظار عودتهم في مواجهة عبدة الأصنام الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فإذا كذب الوثنيون التوحيد ، وخلصوا صاحب فإن اليهود والمصارى لن يعملوا ذلك !

وشرحاً لهذا الموقف الرقيق يقول الله تعالى : **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا نَبِيًّا وَيُكَذِّبُكَ مِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾** (١).

وعندما يوغل المشركون في عنادهم يعثر للمسلمون بأن نقرأ من أهل الكتاب أيديهم ، وصدق ما لديهم ، ودخل في دينهم . قال تعالى : **﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا لَهُمْ الْقُرْآنَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** (٢) الذين اتيناهم الكتاب من قبلهم به يؤمنون **﴿وَأَقْرَأْ لَهُمْ عَلَيْهِمْ قُلُوبًا آمَنًا بِهِ إِلَهًا آخَرًا مِنْ رَبِّهَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾** (٣).

وما تعصب بعض اليهود والنصارى ضد الإسلام ، وعاملوا على شيه ودعوه ، وتعمروا لظلم الرسالة من رواج محا أو هناك فما الموقف منهم؟

يقول الله تعالى : **﴿وَلَا تَجِدُوا أُمَّةً أَحْسَنَ إِلًا بَالِيٍّ هِيَ أَحْسَنُ إِلًا لِلَّذِينَ ظَنَّمُوا أَنَّهُمْ وَلَوْ أَنَّا بَالِيٌّ لَوَلَّيْنَا إِلَهُكُمْ وَآلَهُمَا وَآلَهُكُمْ وَاحِدًا وَدَعَا لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾** (٤).

لكن جمهور أهل الكتاب - خصوصاً اليهود - رفضوا الاعتراف بالشيء الجديد ، وانفسوا الشركين في إلهاء . نوره ، وانفلاخ جدره ، ووضيع الوثائق في طريقه حتى يتفنى الناس عنه .

(١) التوبة : ٥١ ، ٥٢ . (٢) البقرة : ١٢٩ . (٣) البقرة : ١٢٩ . (٤) التوبة : ٢٤ .

الاف نصارى فلن يسلم إلا يهودى واحدا إن التصارى أرق قلبا وكبر عريكة
 ... ذلك بأنه منهم قسيتين ورجلانا وأنهم لا يستكبرون (٢٥) وإذا سمعوا ما
 أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا
 أنزلنا كذا مع اثنين (٢٦) وما كنا لا يؤمن بالله وما جاءنا من الحق... (٢٧)

ومنا أم الكتاب خطبوا إلى الأمام خطوة واحدة ، فقالوا : إن محمدا رسول
 حقا ولكن إلى العرب وخدمهم !

وقد ظهر هذا الفرق قديما وحديثا ، لأنه تأمل في سورة التي وحيه للمعق لله
 وقابله في بعثته وجراره في دعوته ، واستعداده للقاء بأعداد لا تتقطع من
 العبادات والعباد ، فاستيقن أن ذلك كله يستحيل أن يصدر عن كاذب ، فقاما
 يصيح : قال : إنه رسول العرب حلالا .

و نحن مع ترجيحنا بكل خطوة سلام من عصيونا نقول : إن هذا الموقف لا يكتفى
 ولا يشفى ، فمحمدا يحمل أشعة السماء إلى أهل الأرض أجمعين ، ولتشكر
 لعموم الرسالة قريب من إنكار أصلها . .

ولواقع أن المطالع للقرآن الكريم يجتنبه هذا المجلس الجارف في الحديث عن الله
 ووحدانيته وأسمائه الحسنى ، والواجح محمد - باسم الله - على الخلق كله أن
 يعودوا إلى ربهم الأحد فلقروا إلى الله أني لكم منه نذير مبين (٢٨) ولا تعلموا مع
 الله أيها آخر أني لكم منه نذير مبين (٢٩) أليس؟ إنه نذير مبين وحسبنا من يرفض
 هذا الإخلاص الرابع ؟؟

وهناك أهل كتاب يحسون في نطاق ما وردوا لا يعرفون عن محمد شيئا ،
 أو يعرفون تراثا من رجال الدين القاتلين أو بعض السادة الثورين .

وتنصير هؤلاء ، بالمخيفة كلها قد في أضعاف الدعاة المسلمين لم ينهموا بسلامه ،
 ترى متى ينهمرون؟ وحساب هؤلاء إلى ربهم والذي أوه أنهم مكلفون - في غياب
 الرحمن عنهم - بمقدور ما أورا من ذكاء وقوة على فقد اليراثات الربوية واتخاذ
 موقف ما منها .

(٢٧) الطائيات : ٥٠ ، ٥١ .

(٢٨) البقرة : ٨٢ ، ٨٣ .

هؤلاء في موليوك الدينية ألباء عظم . . أما محمد الذي تروج بعض الأراذل
 وماضين على ترك الدنيا زنتها ، ولرب تنهن أن يقمن الليل معه متعبدات ،
 وما تروج واحدة إلا سبب اجتماعي ، ورض طهين جميعا مغارقه إن رغب في
 الناح الماحل ، محمد بعد هذا كله ليس جنونا بالية ، إن الزناة في منطق المسلمين
 أولى بها منه !!!

وتوجد الآن معاصيات من المشركين والمشتريين ولا تتعبدون بقتل الأمة
 الإسلامية ، وتقرظ النكار للإيمان على رسالة محمد ، وتثويه سمعته ، وإطلاق
 الإشاعات الكاذبة حوله . .

على أن حاثا ثامنا من أهل الكتاب أوزا سمعة في العلم ، وتزاهه في الحكم رغبة
 إلى الله ، أمرا يجرى ويحيى ومحمد جميعا ، ورفضوا أن يبهتوا حجاب الله
 العماجين ، ويتأسبومهم المدا . وقد أشتر القرآن الكريم إلى أولئك الصنف الطيب
 من اليهود والنصارى شربا بسيرتهم وعلماهم ثم وإن من أهل الكتاب من يؤمن بالله
 وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاضعين لله لا يشركون بإيات الله قلنا قليلا أولئك
 لهم أجرهم عند ربهم (٣٠) كما قال تعالى : لو كن الراسخون في أقيم منهم
 والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمؤمنين الصلاة والمؤمنون
 الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما (٣١)

وتجاز هؤلاء - بعضهم من الذين ، وشغلهم الحق وأزادتهم للظنون السائدة موهما
 غلب سلطانها ، وقد التفتت يدا تكرر امريسي بكاي ، في ملحق الفكر الإسلامي
 بالجزائر وسعته ، تحدث بأصحاب وأحرام شديدا عن أسلوب القرآن في تناوله
 للحقائق العلمية والتاريخية ، وكيف عُصِم من الأخطاء التي تورطت فيها كتب
 مقعدة أخرى .

وقد سلك أحد الناس : لم لم يعلن إسلامه؟ فأجاب : قلما أسير إلا موزعاً . .
 وقد أسلم بعض المشتريين عن ظاهرو قنود التقاليد ، ولمحظ أنه إذا أسلم حشرة

(٣٠) النساء : ١٢٢ .

(٣١) المائدة : ١٢٢ .

جولاء أربعة أشهر يراجعون أنفسهم ويصحون موقفهم ، فإن أبوا إلا القضاء على الإسلام وجب القضاء عليهم ، وقد فصلت سورة براءة هذه القضية في أوائلها : ﴿وَالَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْبَشَرِ هَئِلَ ثَمُ أَنْ تَنْقُصُوا كُمْ شَيْئًا لَمْ يَنْقُصُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَلِمُوا الْبَيْنَ مِنْهُمْ إِنْ مِنْكُمْ مِنْهُمْ﴾ (١)

أما من نصبروا أنفسهم لحرب الله ورسوله وعباده إلى آخره فقل فلا يلزمون إلا أنفسهم .

وقد يتساءل البعض : لماذا جاءت كلمة الناس عامة في الحديث : «أمريت أن أقاتل الناس» والجواب أن (لم) كما يقول علماء اللغة للعهد ، تأمل قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ قَالُوا لَكُمْ الْبَشَرُ قَدْ جَعَلُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ (٢) وكلمة الناس الأولى : تعني بعض المنافقين ، وثانية : تعني بعض الكفار . وهذا هو اليهود في أذهان المخالفين وتأمل قوله تعالى : ﴿وَرَأَيْتُ النَّاسَ يَخْشَوْنَ فِي دِينِ اللَّهِ الْفُرْعَانِ﴾ (٣) إن الناس هنا ليسوا البشير جميعاً ، إنهم العرب وحسباً .

رايت قريباً من الناس يندفعه الظاهر القريب في هذا الحديث فيتهم أن لرسول يشن حرباً شاملة على البشر ، ولا يزال يحرجهم حتى يظفروا بالشهادتين .

وهنا فهم - كما أسلفنا - لم يقل به فقيه ، ولا يستقيم مع مرويات أخرى في غاية الصحة والوضوح ، ولم يبرز عن تاريخ المسلمين وهم يقاتلون «الإمبراطوريات» الاستعمارية التي أقام بها وجه الحياة قروناً عدة .

ورأيت أمثالا آخرين يسارعون إلى تكذيب الحديث ، دون وعي ويتخذون منه ذريعة إلى مهاجمة شيء الأحاديث الصحيحة دون تحجس لسند أو متن ، ودون تهديد بقواعد اللغة أو مقتضيات السياق ، وقد رأيت لأولئك القاصرين أفعالها في كتاب الله لا يد من تفهيمها وإزالة الغراب عليها .



(٣) القصص : ٢٤ .

(٢) آل عمران : ١٧٣ .

(١) البقرة : ١٩٠ .

ولا أظن هذا الموقف يطبق على أهل الكتاب الذين يعيشون بين ظهراني المسلمين ، والذين جند الاستعمار الدنالي نيرانهم أركبوا الدلائع واقتربوا للناسي وخاضوا الجول..... ١

على أن الإسلام وضع شرائع في معاملة أهل الكتاب والتلطف معهم يمكن أن نذكرها في الفصل القادم عند الحديث عن الرسائل السابقة

ومثلك حديث يعطي معناه الرولة الأولى حكماً لم يقل به الفقهاء ، ومن ثم فإن قوله مطلقاً أو رخصه مطلقاً لا يجوزاً وللواجب استنباط معناه الحقيقي كما نقره المرحومون في العلم

والحديث من رواية البخاري : «أمريت أن أقاتل الناس» حتى يقولوا : لا إل إلا الله ، فإن قالوا صمموا نبي دماءهم وأموالهم إلا بعثتها .. مصدر الخطأ في فهم «أقاتل الناس» فقد طارت أذهان إلى أن كلمة (لناسي) تعني البشر كلهم ، وهذا غلط يلجأ علماء فائهم اتفقوا على أن الحديث لا يتناول أهل الكتاب من يهود ونصارى .. ١١

لماذا لأن المهتدين من جولاء إذا ضربت الحرب بيتنا وبيتهم ، ونسوا منطق الإيمان والاحلال والحرام في تصديقهم لنا ، لم تقاتلهم حتى يظفروا بالشهادتين ، بل إذا كسر الله شركتهم ، بقوا على أديانهم ، وجردناهم من أسلحة المدون ، ورويتنا نحن الدافع عنهم إذا ما جهمهم أحد ، وسلطهم - وأطاعه همه - أن يسهروا في فترات الحرب .

وهذه ما آيات سورة التوبة : ﴿وَأَلِمُوا الْبَيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الْبَيْنِ أُولَئِكَ أَلَسْتُ بِأَعْلَمُ الْغَافِلِينَ﴾ (١) . فليست لغاية من القتال إذن أن يقولوا : يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ؟

لا إله إلا الله ، كما جاء في الحديث ١١

فإذا كان أهل الكتاب مستقيمين من الحديث المذكور . فهل يتناول الوثنيين كلهم ؟ والجواب لا ففي حديث آخر صحيح أطلق للمجوس بأهل الكتاب : «وسع سنة أهل الكتاب» ، الحق أن الحديث في مشركي العرب الذين ضنوا على الإسلام وأهله يعني الحية ، ولم يعترضوا معاهدة مبرمة ولا موثفاً ماعوداً ، وقد منع

(١) البقرة : ١٧٩ .

وفي هذا يقول الله للمسلمين : ﴿فخرج لكم من الدين ما رضى به نوحا وأبلى أرحمنا إليك وما رضىنا به إبراهيم وموسى أن يقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه...﴾^(١)

وتنص المسلمون بحكم بأن كل رسل الله رسله الأولين فقد أتى القرآن به ، ثم أتى عليه بعد ذلك باعتباره إله الأجيال اللاحقة بما يسد كل ثغرة ، ويعنى كل شبهة وزعم مرآت الشياطين .

أتى أنا المسلم أنصر بولاقى موسى وعيسى ومن قبلهما من أنبياء الله ، ومجتبى لأركان المصطفىين الأجيال تبعث من أن محمداً عوفى بهم ، وأطعن أخوته لهم وجهاد مهم فى طريق مشترك !

وفي السورة الأولى - بعد فاتحة الكتاب - تذكر أصول التقوى كما بينها القرآن

الكريم ينتج على هذا النحو ﴿وذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾^(٢) الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقهم يتقون﴾^(٣) والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك...﴾^(٤)

ومع هذا التلاقي بين الإسلام والدين الأولى ، فإن تاريخ الحياة مع اتباع الأديان محزون مروع ، قال اليهود : ليست التصارى على شيء ، وبالطبع التصارى الحكم نفسه ، ثم قال الاثنان معاً : ليس المسلمون على شيء!! وقال الماديون جميعاً : ليست الأديان المساوية لقتالاته إلا خرافة ، وليس اتباعها على شيء!^١

ويظهر أن النفس الإنسانية تشدها إلى شهواتها خيرة فنية ، وقد يكره المرء أن يظهر عند غرائزه فساداً يصحغ

يستبد بهذه الغيوظ أوامر مساوية شريطة أن تحقق له ما يشتهى فإنها هو يتنسى إلى أحد الأديان ظاهراً ودينه الباطن حياته نفسه ، ويبلغ هوانه ، وقد يكون المتدين المعتمد تأثير بالحياة من الجهل بالدين كله!!

وعندما يطالع مسيرة الإنسانية من قديم تفجرونا هذه للساعة ، ولتستقر قلوبه

(١) طه: ٤٠-٤٢

(٢) البقرة: ١٣٠

٧. هل الإيمان بالأَنْبياء الأولين والكتب السابقة ضرورى فى الإسلام، وما حكمة ذلك؟

وجود العلم لم يبدأ بميثقة محمد ، ولا بولادة عيسى ، إن قولنا الجبرية تسلب فى حجب الحياة قبل تلك تيارات طيبة .

وبعبارة لم يدع عباده حجابى خلال هذه القرون ، لقد اصطفى (موسى) من بين الناس وقال له : ﴿وأتانا اختبرتك فانتخب لنا موسى﴾^(١) إني أنا الله لا إله إلا أنا فأخبرني وأقم الصلاة لذكري﴾^(٢) ومن قبل موسى بأجيال اختار إبراهيم وكتبه أن يقول لقومه : ﴿... أعبدوا الله وانفروه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾^(٣) أيضاً يعبدون من دون الله أتقانا وتعلقون أفكان أن الذين يعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فاعبدوا الله وحدهم ولا تشركوا به إلهة فاعبدون﴾^(٤)

ومن قبل إبراهيم بعث نوحاً الذى مكى قومه عشرة قرون على قومه أن يعبدوا ربه ويستقروه ويستقروهم ويسلمهم موبداً : ﴿وما لكم لا ترجعون لله وقاراً وقد خلقكم آبائكم﴾^(٥) ألم تر أنكم خلق الله سبع سموات طباقاً ﴿٥﴾ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً﴾^(٦)

إن الملقى إلى رعدنا هؤلاء الشيتير خالدة ، والخلق الذى شذروا الجواهر الجاه

يجب أن يبقى صمداً ما بقيت الأرض ولسماء .
ولنسى الخاتم أكد أنه لا ينس على فراخ ، وإنما على دعاتهم مهما السابقون ، وأنه يذكر الأم كلها بالأمور التى جعلتها أوحيها فيها : الله الواحد ، اليوم الآخر ، الساعة الثالثة ، رب الأرض ولسماء ، التزام صراط المستقيم ، الأحكام إله فيها شيع ، الصلوات على الرسل وقوى ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة العدالة وتحقيق الخير... الخ .

(١) البقرة: ١٣٠

(٢) البقرة: ١٣٠

(٣) البقرة: ١٣٠

٨. مفهوم الإسلام عن الحياة والموت؟

ظهرت عن كتب إلى العنق الذي أنزل به - وكنت في أحد أسفاري - ثم دار في نفسي هذا السؤال :

تري كم شخصاً سكن غرقتي قبل أن أسكن فيها ؟ وكم شخصاً سيحل مكانى بعدما أغادرها ؟ ما أومي علاقتي بهذه الغرفة . ١. وأحسنت أن هذه الغرفة ، بل أحسنت أن العنق كله شبيه بهذه الدنيا تظهر بها بغية ثم تختفي .

إن ناسا كثيرين قرؤا هذا ثم ولوا .

لقد رأي بعضهم بعضاً كما يرى التزلاء أنفسهم حينما في صلاة العنق وكل مشغول بشأنه يعيش في جوه الخاص فما تربطه بغيره إلا نظرة عابرة ورسة عارضة ! هكذا التقى أبناء كل جيل بأترابهم ، ثم ... ثم ... انتهبوا .

وتذكرت الآية التي وصف الله بها هذه الحياة : ﴿ يوم يحشرهم كأن لم يكنوا ﴾ (١) ساعة من النهار يتعارفون بينهم ... (٢) وشعرت بأن الدنيا تظهر من اهتمامنا

بأكثر مما تستحق !!

هل هذه حقيقة الدنيا ... وتحدث شيئاً ما في الإجابة ثم تأت : على أية حال لا أخجل لانا هنا ، إنما راحلون يوماً ، ولكننا نؤثر أن تتناسى تلك اليوم

لست أسجل هذه الحادثة تهوينا شأن الدنيا إن شأنها يجب أن يهوى عندما نحاول احوارنا ، وعندما نفقد فيها عزيزاً فنكاد نهلك ، أو عندما نكسب فيها نقيساً فنكاد نلقى مصير دودة القز التي تحترق داخل ماتتج برقها الناعم ...

والخوضون في الدنيا أجداد فوق الحصر ، إن قتالهم وحبب الحصول على مغائرها وتصارعهم دامي الجوانب للعب منها دون وعى !

وتحت الأقدام في هذه الساحة الخسيسة أرحام مقطوعة ، وممرات متشبكة وممروات ضائعة ، وصدقات منسية ، ومستغفون ديسوا ، وأشباه كثيرة معززة .

(١) يونس : ٤٥ .

﴿ يسألونك : ماذا أحل لهم ؟ ﴾ وبأنى الرد ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحسنات من المؤمنات والمحسنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا اتفقن من أجل من محضين غير ضالعين ولا متعديين إحدائكم ... ﴾ (١)

والقصد من هذا كله تلويب الجفرة ، وتوحيث الفقرة والشعور بما لدينا في جوه من الساحة والود . وأحسب أن هذه الحكمة من وراء السكوت التمدد عن مناقشة مواضيع التعريف الكثيرة في مزيات القوم ، وإلها جزء من نطاق العفو الذي ورد في قوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويظهر عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ (٢)

وما أجمل أن يعرض موسى قضية اليوم الآخر في خطاب الله له ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ (٣) فلا يصدك عنها من يؤمن بها والبع هو اه فردى ﴿ (٤) والبررة الثامنة ليس فيها ذكر يوم القيامة أو الجنة والنار ...

وما أجمل أن يعرض عيسى نفسه قضية التوحيد فيقول لقومه : ﴿ إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ (٥)

هكذا عرض القرآن النبوات السابقة لتسقي تداييمها مع النبوة الخاتمة هداية للإنسانية حتى يرميها الأخير .

(١) المائدة : ٥٠ .

(٢) المائدة : ٥١ .

(٣) البقرة : ١٧٠ ، ١٧١ .

إن أغلب الناس بهم من ترق أبى الطيب ، وشروهم في الحياة يرجع إلى ذلك ، وما أخرج الناس إلى نعم قوله تعالى ﴿ وما يكف من نعمه فمن الله ﴾ ثم إذا نسكهم العشر فإله يتجاوزون ﴿ ٥٦ ﴾ ثم إذا كف العشر عنكم إذا فارق نسكهم بربهم يشركون ﴿ ٥٧ ﴾ لكنهم رأوا بما اتيناهم فقصموا قلوبهم فنصرف ﴿ ٥٨ ﴾ الحياة الصحيحة في الإسلام أن تعتبر الدنيا لك ولست لها ، إن الله لم يخلق الإنسان ليجوع ويعرى وبذل ويعزى كلا إن له حقوقه المسموعة لا في الضرورات فقط ولكن في الشاغ والزينة ! لكن على شرط أن يعرف النعم ويحسرها .

يبد أن أكثر الناس بلهيه قلوبهم ما يطلب من رؤية مرسله كالحيوان الذي يتبع حامل الجرس أو القبول ، فإنا نجد ما يهيم من طعم انصرف عنه ! فقد انتهى الرباط الذي يهيم إليه . لا إنا يكون بعض الناس كيفه الانعام ؟ لانا تنسى من نعمهم ويكسرو . ولا ندركه إلا إذا احتجنا ؟

إن الله ابتد الخلق لتبهيحنا ، وملكنا الانعام بتدور وروح إلى القول وقال لنا : ﴿ لكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ (١) ، ورضي لسماء بالندري الامامات ، وقال : ﴿ ولقد جعلنا في السماء نوراً ونزيراً للظالمين ﴾ (٢)

ورفض مسائل أهل القبروت الذين يحجون الحياة المفضية فوق أرض تفرق بالبركة والسماء وقال : ﴿ من حرم ربة الله ألقى أخرج لعباده والطيات من الرزق ﴾ (٣)

المقول - بعد هذا الرزق البسوط - أن يتبع بهذا القفل الاعلى وقدر صاحبه حق تدور . ١ - وأطباعه الصحيحة في نظر الإسلام أن تعرف ذلك من خلال آياتها . إن المبتدئ المار يفتح بسمائه على الآلة الحكمة التي يبدعها ، ورب العالمين - وله اللل الاعلى - أظهر صفاته العلى في خلقه هذا العالم الرابع .

وحيثما نحن ليس فوق ظهر الأرض فرصة لا تذكر لمروة الله ، وإنشاء علاقة صحبة به تبارك اسمه ، وأنا لا أنطق حين أصف إصفاي بملقة الله ، ولا أخبح ببيئنا إني ألام صدى البهواء ثم أقول : سبحانه من خلف كوكنا بهذا الجو الذي تنفس فيه أرواف بولقة من الناس والموال والطير وإن هذا البهواء سواء هب ربحا عاصفة أم نسيما على لا شيء عجيب الخلق !

(١) لقلم : ٥٦ - ٥٥ . (٢) لقلم : ١١ . (٣) البقر : ١١ . (٤) الأعراف : ٣٢ .

ما أحقر الدنيا يوم تالك بهيما الشمس ، وما أحرها بهيما الوصف الحكيم ﴿ واغرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ﴾ وكان الله على كل شيء مقبلاً (١)

لكن الحياة الدنيا جانيأ آخر لا بد من بحث ودراسة ، إنا توجد فيها وقصص فيها أمها لا ندري جعله ولا منتهاه ، ولذي أرجئنا أخيراً إنا لن نترك مدى ، وأنه لم يخلقنا عبثاً !!

إنا ألام عمل جاد واستمرجان خطير . ١ - وإن علاقتنا بالاشياء والأشخاص محكومة بقوانين دقيقة ، وأنا خلقنا للبا ، لا للثناه ، وإن اليوم بذرونا حصاد . وإن المكان المهد والزمان المجد هما ساحة سباق هائل توشك تتألق أن تملأ : ﴿ تبارك الذي بيده الملك ومن على كل شيء قدير ﴾ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ... ﴾ (٢) وإذا كانت الدنيا فتنة لا رادها فمن الحكمة تبتلركم أيكم أحسن عملاً .

محاوره الملود فيها ، أو حصر الاهتمام في مازيها وحسب ! إن ما يستعجب منها للحد الرقيب هو الحق ، ولذي يعيش حيد بقله دابة ، وقيمتها ما يخرج منه ! ولذي يسبى جنون الكال وأطباعه ، ويعلق كل شيء لإبتات ذاته رجل تائه !

كان أبو الطيب اللبسي يرى أن المنظمة هي مجد السلطة وتبل الحكم . وتؤكد في العياقود وما كانها . تساور سمع العراء العبد العشر !! كان يرى شقة قصة يجب أن ترجع بالأوبة والثناء ، وسلم ينج لحدنا كيرس العائل :

وكل صاحب السور وما لم يخلق محقر في هضي كعمره في مفرق !! وإن من غرور هذا الإنسان للماض برون قول ابن عطاء الله السكندري في حكمه .. من مدحك وثاق مدح مواعب الله حلك ، فاقفل لمن تنحك لا لن مدحله .. كذلك يسكنين المؤمن لله ، ويعرف نعمته ، ويقر بعجزيته ، ويهدد نفسه عند عودته !

(١) الكهف : ٥٥ . (٢) النك : ١١ .

٩. ما فكرة الإسلام عن البعث والجزاء؟

إكثار اللذات الأخروية ليس بدعة هذا العصر، فمن قديم كان هناك من يكذب الأنبياء ويضعهم بالجحيم لأنهم يؤكدون أن للوحي سوف يبعثون ويحاسبون ويثابرون أو يعاقبون؟ كان أولئك المكذبون يقولون للآدم التي تسبح وعيد الرسل في جهنم هي جهنم لا تؤخذون (١) إن هي إلا حيلنا الدنيا لغيت ونحيا وما نحن بمبعوثين (٢).

لكن عصرنا امتاز بأنه رغم التبرعات المادية أصلا علميا، واشاع بأن الدين بعيد عن المنطق العقل لا ومن ثم شاع الإلحاد، ورائي الكثيرون لدينامهم وحدهم، ولما تذكر الآخرة في مؤتمر جاد أو ينظر إليها على أنها حقيقة مقتررة، والذي أراه أن الإيمان بالآخرة فرع الإيمان بالله عز وجل، فمن آمن بوجوده لم يستبعد قط قدرته على إيجاد المم بعد إفتائه، وإقامة ساحة عامة لحساب دقيق باقى فيه كل امرئ جزاءه في يوم تبعث كل نفس ما عملت من خير مضمرا وما عملت من سوء توفى له أن ينبتها ربيها أمدا ويعذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد (٣). إن العلاج يستلزم أن يفرج الأرض مرة ثانية بعدما جعلها، والبهائم يستطيع إعادة بيت تهلهم، فما لا يبي يعجز خلق هذا العلم على إيشائه مرة أخرى بعد أن يبلغ أمله الذي حدده له (٤).

وقد قرأنا أديبا كثرنا عظاما ورفاقنا أيضا ليعبرون خلقا جديدا (٥) قل كبروا حجازا أو جديدا (٦) أو خلقا شما يكثر في صدوركم فيستقرن بعبادنا قل البهي قهركم أول مرة... (٧)

لو كان هذا الكلام من خالق الكون - وهذا محجرا، ما تأخرت في تصديقه! فكيف وأنا أولى في كل لحظة من دنيا الناس خلقا جديدا يترفع فيه الإبداع الأعلى

(١) الإسراء: ٤٤ - ٤٥.

(٢) آل عمران: ٣٠.

(٣) التيسين: ٣١، ٣٠.

وملا الله الذي يكف أرمسا؟ إن المسلما قلوا: إنه يكون ٨٠٪ من سطح هذه الكرة المظلمة حول أسما الشمس، ومع جرمها المحيط ما سقطت منه قطرة في الفضاء، وكان للفرس أن يسكب في كل ناحيتنا من يسكب في بعاره وأهبار؟ ويجذب لينقي في ثوراه؟ إنه الله.

إن الملائكة لرحب التي تسكن جثاها شيلا في بشرى ربه وتسبح بحمده، وعليها إتياء الحياة الدنيا أن تتجارب مع هذه الملائكة حتى إذا غادرناها إلى ما بعدنا كذا أملا غوار كرم (١).

أما إذا عشنا ناكل ونلهو وحسب فالنصير كالح. وقد نبينا إلى هذه الحقيقة الصامدة: فإن هذه يدركه نفس شاء اتخذ إلى ربه سبيلا (٢) فذلك اليوم الحق نفس شاء اتخذ إلى ربه مائلا (٣).

ورق على أهل الإيمان أن يتسكروا في الدنيا. وقدروا عليها بسمة المم وقوة العمل لأن الله لم يخلق عبادة كي يعيشوا على هامس الحياة، أو يضطرب في أديهم زمامها ومو الغافل: فو لطف مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون (٤). ولهذا الممكن شمران: الأولى حسن ارتفاق الأرض، واستغلال خيراتها في رفاهة الإنسان ومعامته إلى حين.

والشعر الثاقبة: تطوع ما في الأرض من قوى المم التي، وإقامة نظام محكم لجعل الأمور تسمى وفق ما شاع الله، وملا ما تصح به الآية الكريمة: فو وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ونافع للناس ليعلم الله من يعمره ورسله بالقياس (٥).

إن الحياة بالحياة ليسوا الناسا صالحين وكيف يكون صالحا من لم يقرأ عظيمة الله في صفاته كونه؟ وكيف يكون صالحا من ملكه الله الأرض وقال له ولا مثله: فو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا... (٦) فبماش ملكا للأرض فادها فوق ثراها وملكته هي بذلك أن يملكها وكيف يكون صالحا من سمح للإلحاد أن يسبقه في كل ميدان ويؤمره في كل شام؟

(١) الأعراف: ١٠.

(٢) لقيا: ٣١.

(٣) الزمر: ١٩.

(٤) الحديد: ٦٥.

(٥) الحديد: ٦٥.

من أجل ذلك كانت الآخرة حافلة بالإنجازات العظيمة، رب كلمة في الدنيا عابرة في الآخرة، رب ملك هنا علو كما هناك، سبب هنا ناس من الأوج إلى الأوج، وبتبع آخره من العالم إلى الأوج هو إذا وقعت الزلزلة (٢٦) ليس وقعها كآفة (٢٧) خالصة زلزلة (١).

إن الآخرة حق لها تصحيح الأوضاع وبرد الاعتبار، وتحقيق العدل اعتباراً له بالناس بإخراجه إلى حين - مما ألحق جزءه من نظام الدنيا دون استحداثها المصعبة ، والابتعاد عن موانعها ، ولذلك جاء في الحديث القدسي ، «في إجابة دعوة العليم والمؤمنين وحلالهم للصيرنة ولو بعد حين» وجاء في انصراف المؤمنين على الكافرين في قولن وحلالهم للصيرنة ولو بعد حين (١٧٦) وأما قوله تعالى (١٧٥) أفبأنظارنا يصغفون (١٧٦) فإذا نزل بها عليهم فساء صباح المنقرض (١٧٧) ويقول عنهم حتى حين؟^(٢)

لقد تكرّر هذا الجنب وانتظامه مرتين في سياق مقابله، والله لا يجعل بعثتنا، وإن سأل الكثرية فوق تكثيره العبود، ولكن وزن اللزوم من الجبر أو السر لا يفسح أوتيس.. وحدث الإسلام من الجماعة والحساب تدول مرجحين: الأول مرحلة للسر الذي يزل بهذا العالم، والاختيار الفكري الذي يحو نظامه ويغطي نحوها وقد جاء في السنة: «من سره أن يرى القيامة رأى عين فليرأها وإذا الضم كبرت» وإذا العوم انكثرت^(١) وإذا السنة انقثرت^(٢) فليقرأ

وإذا الكواكب انتزعت ﴿١١﴾ وإذا السماء انشقت ﴿١٢﴾ وأنت ترى بها رحمتك ﴿١٣﴾
ويظهر أن الهول الذي يصحب هذه الاضطرابات الشاملة بغیر الافئدة بالفرج
والربية تترى نفس سكارى وما هم بسكارى ...

ومعهم الساعة يكون بنته، والناس سامعون في أعمالهم الضالين، الأكل يفرح
لنعمته إلى فمه، ويأثم يشهد البيت الذي يثب، والناجح يناول البائع السعة التي
يطلبها. ومذا وراك في جدالهم - حور نشيريم، ومستقرقون فيما بينهم يقول
تعالى: ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ هَذَا الرَّعْدُ الَّذِي كُنتُمْ حَافِظِينَ﴾ (٤٨) ما ينظرون إلا مصعة واحدة
تأخذهم، وهم يعضضون (٤٩) فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون (٥٠)

٢٨١: (٣) لکھنؤ
١٧٨-١٧٤: (٧) لکھنؤ
٢٨١: (٩) بیروت
١٧٨-١٧٤: (٥) لکھنؤ
٢٨١: (٤) بیروت
٣-١: (١) بیروت
٢٨١: (٨) بیروت

جلى ما يكون في كل ساعة من ليل أو نهار تتقلب الأرحام بعشرت ومات من الأجنحة السوداء الخلق، الدوازة الأجهرة التجارية مع عناصر البيئة التي ترتبها، فهي تسمح وترى وتعي وتضي في طريقها قدما إلى استكمال وجودها القادر

هل صبح اليربوع شيئا في هذا التعلق بالمرء؟ أم صبح الخيلان المرء وأدفع فيه خصائص فريضة المادية والأنيبة؟ ومن صبح برفعة الأم وبرد أوجها صفات الأباء والأجداد؟ أم أرقعتهم؟ أم توترت (24) أديم خلقهم؟ أم نحن المخلوقون؟ (1)

إن إنشاء الحياة في عالم الإنسان والحياة يتكرر كل يوم صفاء تستمد
بعضاً يتيم مثله بين أسماكنا وأصهارنا؟ إن ذلك سر تفرغ القرآن للأنهارين عندما
يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَشَاءَ الْأَوَّلَى فَلَوْلَا تَذَكَّرْنَ﴾^(١١).

إن انتشر الجهالة لأيعطيها رجاءه! وإذا كان منكرو البعث كثيرين ، فليسوا إلا قطعنا من الخافين أو المغفلين !!

وَمَنْ كُلَّ عَاقِلٍ أَنْ يَسْمَعَ إِلَى هَذَا الشَّيْءِ : فَمَا يَبْهَمُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَكُنَّ إِلَى
 ذِيكَ كَدْحًا مُلَاحِظًا (٢٦) فَمَا مِنْ أَرْبَعِي خَبَاءٍ يَجْعَلُ (٢٧) قُورَيْنَ يَحْسَبُ حَسْبًا
 يَسِيرًا (٢٨) وَيُطْلِقُ إِلَى أَهْلِ مَسْرُورًا (٢٩) وَأَمَّا مِنْ أَرْبَعِي خَبَاءٍ وَرَأَى ظَهْرَهُ (٣٠)
 قُورَيْنَ يَدْعُو قُورَا (٣١) وَيُطْلِقُ يَمِينَهُ (٣٢)

إن العدالة لا تحقق في هذه الدنيا ، فهناك سلة تبوءوا القسم ، وباقرة توسلوا التراب ، وتلقى أذن المجرمون أرواحهم وعادوا يصحكون أو يسكرون .

إِنَّ الْإِنِّينَ وَسِعَ بَيْنَ أَفْئِدَةٍ مِنْ عَرَبِ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَسُلَاسِي بَنِي إِسْرَءِيلَ قَتْلَافِي الْخَرْبِ الْآخِرَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ اللَّهُ أَهْلَ الْعَرَبِ وَارْتَدَّتْ لَهُمُ الْكُرَّةُ بَعْدَ سِتْرِينَ طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَةً، سَبَّحَنَ الْجَارِزُونَ قَدَ مَاثِرًا، وَقَدْ يَعْنِي عَنْ آبَائِهِمْ أَوْ أَصْحَابِهِمْ - كَمَا قِيلَ صَلَاحُ الدِّينِ - وَقَدْ يَقْتَضِي أَنْ لَمْ يَتَّخِذْ خَيْرًا¹¹.

إن القوانين الكونية لها منطق فوق ما نعرف، ولها ضحايا يضيرون في حركتها الدائرية بقول الشاعر:

(١) لوقمة: ٥٨، ٥٩ .
(٢) لوقمة: ٩٢ .
(٣) الإنشاق: ٦ - ١٢ .

١٠. ما البرزخ؟ وما لا تثله في الإسلام...

المعروف عند جمهور المومنين أن الإنسان مخلوق من عنصرين مباينين .

جسمه من هذه الأرض خلق رفاً ، وروحه من نفثة من الله سبحانه وتعالى ، فهو ليس حيواناً وليس ملائكة ، وفي كيانه تتجاور المتناقضات ، من غرائز مادية ، وسيجات عقلية ، وعاطفية .

وعندما يموت يرجع إلى الأرض ما نشأ منها وتبقى على تاجها ، يرجع ههنا أجسده لجسده ، وينفث منه ما شاء الله في فيها خلقكم وفيها نعيدكم وفيها نقيمكم فأروا أنى كنتم (١) .

أما الروح فله مستقر آخر ، لا يدور ببقية مكانه ، لا يدور كذلك ما علاقه بالجسد الذي كان فيه ، هل انقلبت صلته به انطباعاً تائماً؟ هل - عند الموت - يعود إليه هو أم يعود إلى جسد شبيه به؟ هذه أسئلة لا تبت في الإجابة عنها إلا الذي نبت فيه أن الشخصية الإنسانية لا تبقى بالبرزخ وإنما رحلت من عالم إلى عالم آخر ، وإنما بقيت كاملة الخس قامة الروحى ، وإنما إذا فقدت الآن والعين فلم تفقد السمع والبصر ، بل قد تكون أسمع وأبصر عما كانت على ظهر الأرض ... إنما قد تكون موهبة في اللطف المادى ، أما اللطف الروحى فملئنا محدود بل صفر ... إنما وقد أعيرنا الله أن الشهادة للدين فقلنا في معارك الجهاد وبزعت أجسادهم ، وقد نزلنا نحن فقط لأنهم غابوا عنا ، أما في حقيقة الأمر فهم أحياء .

وقد استند إليهم خمس صفات تستحق التأمل .

هم أوّل أحياء لا هلكوا وتلقوا في جوار كرم أنهم عند رب العالمين ، وثالثاً في منزل حبس جلال ، بالغير بدر عليهم الأرزاق ، ورابعاً هم فوجون بما نالوا ، معمرزون بالمعطاء الأعلى ، وخامساً مطمئنون على أقرارهم وأصدقائهم الذين يتخلوهم في الدنيا ، أنهم على حق وإلى خير ، وقرىبا سوف يستريح الشمل ويلحق أحياء الأرض بأحياء السماء !

(١) سورة البقرة : ٢٥٠ .

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الحساب الذى يشمل الأولين والآخرين ، ويحدث أبناء آدم منذ بدؤوا حتى اتوا ، ويستعرض أفعالهم منذ خلقوا حتى ماتوا !!

فيل لعل بن أين طلاب : كيف يحاسب الله الناس على كثرتهم في يوم؟ قال :

كما يزورهم على كثرتهم .

والذى نصحه نحن أن الزمان سوف يتقدم كما يتقدم الزمن عند رواد الفضاء ، وهل العلود إلا اتعدام الزمان؟ وأن رب العالمين سبحانه الخلق في حال من الإحسان أمام بكل ما أسلفوه في الدنيا ، وكان لفرصة سجدة حر بأنفسهم ملاكى بكل ما كان منهم وحكم الله فيها .

ثم يستعد كل إنسان للانطلاق إلى مصيره المبدل في ذلك يوم مجموع ذلك الناس وذلك يوم مفهود (٢) وما يؤخروه إلا لأجل مفهود (٣) يوم يأت لا تكلم نفس إلا بأوفاً فيههم نفثي ونفيد (٤) .

والجزاء مآدى وزر حاسنى معاً ، إبه الإنسان الذى عبد بجسمه وعقله ، أو لغير جسمه وعقله ولا يستطیع أن يدرس للقرآن الكريم أن يفسر آياته في وصف الجنة والار بها من قبل الجاز ، وليس هناك بيت ما يدور لهذا التصف في التفسير . والتعل إلى حادية الإنسان بأنها موهبة ، ولذاته النفسية بأنها مربوط هو تأثر بفلسفات خيالية لا وزن لها .

ثم إن مع هذه اللذات ما هو أسنى وأزكى ، معها الزموان الأعلى والاستغراق في شهود أسجد الأوكسب في أن الأبرار نفهم (٥) على الأوابك ينظرون (٦) تفر في رؤيتهم نظرة القيمة (٧) جعلنا الله من هؤلاء الكافرين .

(٢) الشورى : ٢٨ - ٢٩ .

(٣) سورة البقرة : ١٨٣ - ١٨٥ .

وأكرهه... لا يصلح المختصر المشرف على الموت: بل والطرفة، غداً، الاقوى الأوجه، محمداً وحزبها والواقع أن الموت نقله إلى علم مستقر مطرد النمو، إن أودية الموت، من بدء الخليقة تستقبل الأجيال المديرة، الأجداد ثم الأبناء ثم الأولاد ثم الأحفاد، وهكذا من قدم، فسلم الموتى يتبع باستمرار والتناج تتكشف فيه، ومعان الناس تعرف...

لسكان اناس مقبر بفسادهم فهم يتقصون والقبور تزدرد
وليس القصد من زيادة القبور أن مآبها تزيد، وإنما القصد أن اللا متقين يذمرون
السايقين! سداً بعد مدد وهؤلاء وأولئك في انتظار القيامة الكبرى حتى
يحيى أوانها..

وتبدأ حياة البرزخ بلوتوبيا من ساعة مفارقة الروح للجسد، وتدير قلبه تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ تَخْرُجُونَ عَذَابُ النَّارِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١)

واليوم - لا الغد - يبدأ العقاب على ما مضى من افتراء وكبرياء.

إن الإنسان طرق الدنيا علرباً، ولقد قلب فيها ثم ما هو ذا، يتركها كما جامها، لا مال ولا جاه ولا عزرة ولا سلطان ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ تَوَكَّهْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ...﴾ (٢)

ويظهر بقدر أنه ما يكون المرء طافية في حياته الأولى، يكون ترصد الزبانية له وارفاقهم اقصد كيمياء يؤذب على غلوه وفساده، فتكون مراحل البرزخ الأولى لطلمات تتناوله من كل جهة، وأهانات تلته بالخزي والعار، وذلك كله أيام القبر الأولى، أضى أيام البرزخ، وليس يحتاج الأمر إلى مسألة فما محلها إذا كان الجرم قد لغته الوفاة وهو يقاتل الحق ويخاصم حمله من المرسلين والصالحين ترى ذلك في قصة الفراعنة: ﴿إِنَّا نَرَى عُضُنَا عَلَيْهَا عَلُوداً وَعِشَاءً يُورِثُهَا قَوْمٌ نَاسُوءٌ﴾ (٣)

(١) الأسم: ٩٣، ٩٤.

هذا ما تذكره الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَعْصِمُنَّ النَّفْسَ فَنُفِرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ بِأُلُوفٍ حَتَّى تُعَذِّبُوا عَنْهُمْ﴾ (١) في حين بدأ آتاهم الله من قبله ويستنبطون بالذين لم يَلْقَوا فيهم من خَلْقِهِمْ إِلَّا ضُفُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحِزُونُ﴾ (٢)

صحيح أننا لا نشعر بهذا كله ولا بعضه وقد صرحت سورة أخرى بذلك ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُعَذِّبُ اللَّهُ أَنْفُسَهُمْ سَبِيلَ اللَّهِ أَنْتُمْ فِي أَعْيُنِنَا...﴾ (٣)

إن علم شعورنا لأن أجهزة الاستقبال السمعي والبصري عندنا محدودة القدرة، وغربنا عن الكائنات يرانا ولا نراه، وكما قال العلماء: علم العلم ليس علما بالعلم إنه كما يسافر أحدنا من بلد إلى بلد يسافر الموتى من مكان إلى مكان، حيث تبدأ الحياة الأخرى، ويبدأ الحساب الرطب تمهيداً للحكمة الكبرى يوم الشورى...

وله المرحلة المتوسطة هي البرزخ كما ذكرت الآيات ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٤) لنلي أعمل صاعاً فيما تركت كلاً لأنها كلمة هو قائلاً ومن واليهم يروح إلى يوم يطرون ﴿٥﴾ وشبه ما يلقاه الفجار في البرزخ ما يفعله رجال الشرطة بالجرمين عندما يقعون في قبضتهم... هناك تحقيق ابتدائي سريع، ثم يرمي المتهمون في السجن ريثما يقدمون للقضاء في محكمة كبرى... وشبه ما يلقاه الأبرار ما يصنعه رجال العلم عندما يستقبلون مؤثماً تقررت ورشبه ما يلقاه الأبرار ما يصنعه رجال العلم عندما يستقبلون مؤثماً تقررت مكافأته... أو عقاباً منج جائزة سنية، إنه يجاء به مكرماً ويستريح في إحدى الغرف الأنيقة ريثما يأخذ ما تقرره له...

والذين يقعون الخير أو الشر ليسوا سواء في مراتبهم، فمن الأشرار من يفتح له شواظ من نار يشوى وجهه حتى يوم اللقاء ومن الأخيار من يتلقى النعم من أول يوم كما جاء في وصف الشهداء أن أرواحهم معلقة في قناديل تحت العرش ترو

أنهار الجنة وتعلم من ثمارها...!

المهم أن الموت رحلة من حياة أرضية محسوسة لنا إلى حياة غيبية نسبح بخبرها... وحسب، وقد كان الأصحاب الكرام يعرفون ذلك معروفة يقين، فلما حضرت وليلة الوفاة صاحبت امرأة:

(١) البقرة: ١٥٤. (٢) التورون: ٩٩، ١٠٠.

١١. ما طبيعة الجزء الآخرى وهل هو روى أم مادی؟

هل خلق الإنسان من روح وحشد شيء، وماذا؟

كلنا نرى بعض الناس بل كذلك قال أصداء الأنبياء لهم وهم يقرضون رسالهم ويكرهون حديثهم عن الله ، ومقرضين أن يكون المرسل ملكا في وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويشرب في الأواني ألا أولئك ملك لا اله الا الله فكيف نفهمه؟ (١١)

وكما استذكروا أن يكون المرسلون بشرًا ياكلون ، استذكروا عليهم ذواتهم ، وليسوا طائفة من الطبيعة تشبه الإنسان الكبير ، وعليه إذا أراد الكمال أن يكونها .

وقد رد القرآن هذه الزعم ، ومن أجل شأنه أن المصلحين الاخير من صفاته كانوا رجالا ناصحي المرائر في لقد أرسنا رسلا من قبلك وجعلناهم أزواجًا وذرية (١٢)

وعن تلك فإن يقال من منطق الجاهلية لقلية الآراء علة بأنهم الكثيرين عن يسيرون لسوا البشرى لا يتم إلا بإعلان حرب مجترة على لبين توهي قوله وتخرج غراره .

بل سرى تلك الفكر إلى بعض المذهب الدينية ، وانتهى عليه ، أن التقوى في هذه الحياة تعنى الرحمانية وأن السمو في الحياة الأخرى لا يتصور مع وجود هذا الجسد اللعين ، وعليه بعد ذلك فلا بد أن يكون الجسم الموجود روحانيا محضا وكذلك المنادى الرصد للأصغارا !!

ولا كان الإلزام دين العطرة السليمة ، ولا كان لبابه احترام الحقيقة الجردة ، فإنه رفض كل هاتيك المسمات والصفات ، وأسس تكاليفه وأجزئته الدينية على اعتبار الإنسان كائنات متميزا بجمع بين جملة من الواهب والخصمال التلايفية في شخصيته ، بما جميعا يسمو أو يهبط زوها جميعا يثاب أو يعاقب .

أو كما يقول الأستاذ العقاد : ليس ما يبين به السلم أن يترد النوع الإنساني إلى ما دون طبيعته ، ولكن ما يثبث به أن ارتفاع الإنسان ويصير متوسطا بالطبيعية ، وقوامه أخيرة والبيعة فهو بمثابة التكليف قابل للمصمود إلى قسمة

(١) سورة ص : ٧٨ .

(٢) طه : ١٣٠ .

فرعون أشد العذاب (١٣) وقوله كذلك في كبره قريش الذين أكرمهم مناهم وهم يعاينون الذين (١٤) في معركة بدر قال تعالى : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنزَلُوهُمْ عَذَابَ الْغَوْثِ) (١٥) ذلك بما قدمت ألبابكم وإن الله ليس بعلام الغيب (١٦)

وقد رسمت جبهة الشركين البغيضة في بشر ، ووقف النبي بعد دفنهم يقول بصوت جدير : هل زعمتم ما زعمد زعيم جحلاهم وهو يتألفهم بأسمائهم فقال له أصحابه : إننا نرى قوما جفونا قال : ما أنتم بأسماع إلا أقوال منهم ، ولكنهم لا يعرفونها

إننا لا نشعر بما يباله المرسلون منا ، بل لا نشعر بشيء من علم الغيب وهو عالم مديد ونسيما

ولن نتأخر نفس أبدا عن أحد طريقها إلى البرزخ ولا لئلا الجراء المند لها ، مهما كان حب الأقرين والأصدقاء والأزواج ونشرب قوله تعالى : يصف حالة الحضر وجيز من حوله : (وَلَوْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (١٧) وَأَنفُسٌ حَيْثُ تَنْظُرُونَ (١٨) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (١٩) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْغَيْبَ فَلْيَكُونُوا مِنْ كَافِرِينَ (٢٠) مَا يَفْقَهُونَ (٢١))

لا أريد تفسير الآيات ، ولا ذكر عن عجونا عن إحصاء وهو أقرب إلى البيت منا نحن الملتصقين به الحائزين عليه اللهم إن البشر كلهم أصدار أمام سلطان الموت ، وأمام ما يقترن الموت به من مبادئ الحساب .

إن الموت فصح الحياة ، ومع ذلك فحينما للحياة بمعنى ونسما ودعونا عن الجراء المرقب أهي وأما تلك ، وقد ورد في الآثار أن الموتى لا يرجعون إلينا ، بذلك سبق القول من الله ، وبذلك أجيب هؤلاء أحد .

ومن ثم فالمرح بان الأرواح تستمع في مجالس خاصة وتقص ما تلتقي على الحضور بكاد يكون رجعا بالغيب وقد تبينت بعض إلى هذه الأرواح الحاضرة من كلام فوجته تحليقا وقد يكون من حيث الجن واستهواهم البشر !!

(١٣) سورة النمل : ٨٠ ، ٨١ .

(١٤) سورة النمل : ٨٠ ، ٨١ .

(١٥) سورة النمل : ٨٠ ، ٨١ .

النجاة من النار لمن ضحى لله بصل العابدون ، فكيف يحيى أحد من الناس ، رجلاً أو امرأة ليقول : بل هو أصل تافه ؟

ورجول الله جل جلاله ﴿وَمَا أَفْرَأْتُمْ مَا عَلَيْكُمْ رَبِّكُمْ﴾ (٢٦) يتخذه العُلمُيون (٢٧) أن الأثر فيهم (٢٨) على الأثر فيهم (٢٩) يعرف في رجوعهم نصرة النعم (٣٠) يستقر بين رجوعهم (٣١) جنة منكم وفي ذلك للفقهاء العُلمُيون (٣٢) .

في الرضى أغنم بقاءهم قوم تعرف في رجوعهم نصرة النعم ، في هذا الجراء الخليل ينبغي أن يتلقى للتأثيرونا كيف يحيى إنسان رجلاً كان أو امرأة يقول : لا أريد الله علماً لشيء من ذلك .

إن هؤلاء الناس يكذبون على طاعتهم الإنسانية كما يكذبون على دين الله ، ثم هم يستبون تصور النعم الأعلى ، أو العقاب المرمدي .

إن الجنة دار للوعين من النعم أحدهما ماضى والآخر مستورى ، فالله تكري للإنسان يقضى من النجلى الإلهي يشعرو بالضرورة ووقفه بالروية .

ويذهب أن النجى العاني أكبر من الأول ، كما قال جل شأنه : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٣٣)

ولكن هل هناك تفاصيل في هذا الكيان البشري - بين الإحسانين أو أن الإنسان بأجوره المادية والمعنوية يتولى الخير والشر جميعاً ؟ إن اللذة والألم قوانين إنسانية صادرة فلم العلم فيها ؟

ولو فرضنا أن الجنة محل الكرامة الإلهية ، لكفاهها ذلك ، ولا حزنناها من أجل هذه النسيئة ولا باقى الكرامة إلا التيم ، فكيف - وحى إلى جانب ما وصفناه - طلبية حاجة طبيعية يحسها كل إنسان ، حاجة تلك البدن الذى يفتيره الحومان ، ويضفيه النفس والذلل ، حاجة تلك آبدن الذى يكره الخبز والمعيش والحرى واليهوان .

الطبيعة ، وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين ، وهذه الأمانة هي التي رفعت مقامنا فوق اللاذكية ، أو هبطت به إلى نزلة الشياطين .

ليس للهبوط أن يشعنى الإنسان طمعاً أو امرأة ، إنما للهبوط أن يأكل اللذة من سحت ، أو يعمل من أجل له .

لأننا طعم من حلال ، أو نصل بأشئ لتكون زوجة يمكن إليها ، ونتم بها زهد وجوده معها فلا شيء في ذلك أبداً .

لقد أنشأ كثير من المستحسنين إلى الذين في استغفارهم للبدن ، وفهمهم أن الشئ لا يحصل إلا بسحقه ، وفهمهم بعد ذلك أن الحياة الآخرة لا وجود للبدن فيها ، وأن النعم أو النجى مديون ، وحسباً !

وقد سرى هذا الخطأ - كلاً أو جزءاً - إلى بعض متصوفة المسلمين ، فاعتقوه ، وحسبوا دلالة ارتقاء ، وتقدم ، فظلموا بهذا الملك دينهم ، وألقوا خطلاً سبياً في موازين أجزاء كما أقامها الكتاب العزيز .

وللأجاء أبحاث لاديانات المعرفة في الجور على الطبيعة البشرية وبذلك أسحوا للمذاهب المادية طريق التقدم والسيادة .

بل بلغت المجازفة بهذا البعض أن حقروا عبادة الرزية والروية ، وأشاعوا أن من الهبوط أن يطلع الله طلباً لجنته ، أو تدع عبياته خوفاً من ناره حتى توهم الناس أن الأصل في الجنة والخوف من النار ليس شأن العبد الصالحين !!

وهذا الضرب من التفكير لا يكتفى وصفه بأنه تفكير إسلامي ، إنه ضرب من الشرود والفرور تدنو ثقافته عندما تنحزم إلى العقل وتقتل على سواء .

ولنبينا بالمثل ... يعف لنا القرآن الكريم مشاهد المجزاء ، فيذكر لنا أن رجلاً مؤمناً يبحث عن صاحب له كان ظاهراً الإلحاد والفسوق ، فوجده قد استقر في سواه فأنشأ فحصد الله إن لم يتأثر به : ﴿وَقَالَ تَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَأُفْرِقَنَّكُمْ وَأَتُونَكُمْ بِمِثْلِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٤) أي مؤمناً الأولي وما نحن بمؤمنين (٣٥) أن هذا فهو الفوز العظيم (٣٦) بل هذا قليل القابلون (٣٧) .

أمن أجل فكرة خيالية نجى إلى مئات الآيات الصريحة الواضحة ، فصار
صبرها عن ظاهرها والتسمل في تأويلها وأساءه الآثار الثورية للفترة بها .

﴿ هل أتى أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾^(١) .

ماذا يبقى من آيات القرآن بحاجة من التأويل والإبطال إذا تمت هذه المحاولة .

إن الله وجه إلى نبيه هذا الأمر ووصف أنبياءه الكرام بأنهم ﴿ كانوا يسارعون
في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾^(٢) .

ووضع أمام أصبار البشر كلهم هذا الترهيب ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة
فقد فاز ﴾^(٣) .

فهل بعد ذلك نسمع لقول امرئ يرفض عبادة الربية والربة ويؤمن أنه لا يخاف
من النار ولا يحب الجنة ، وأنه - إن عذب - فإني أريد ابتغاء وجه الله !!

ما هذا اللغو؟ وهل الوجه الناضرة ينظرها إلى الله تنظر بذلك في قعر جهنم ، أم
تنظر بذلك في حقائق الجنة؟

قال لي أحد المصنفين : إن من الخامسة أن تعبد الله منتظرا أجرا . فقلت : من
العمودية أن تستعشر بفضل الله ، وأن توكل من عقوبته ، وأن تعرف قدرك وتلزم
حدك أين تريد أن تضع نفسك؟

إن الله قال عن نبيه إبراهيم : ﴿ وحققا في ذريته النبوة والكتاب وآتيه أجره في
الدنيا وآله في الآخرة لمن الصالحين ﴾^(٤) .

فهل أنت فوق الأنبياء استثناء عن الأجر الإلهي؟

وقال عن عباده المؤمنين المؤمنين : ﴿ تعطيهم يوم يقربونه سلام وأعد لهم أجرا كبيرا ﴾^(٥) .

ووصف عاقبة الصادقين المضحين بأنفسهم في سبيل دينهم فقال : ﴿ والصداء

عبد إليهم لهم أجرهم ونورهم ﴾^(٦) فهل أنت في مكانة أخرى غير ما أعد الله
لشهداء والصالحين ، مكانة الواحد في أجر أو الرافض له ؟ ما هذا الغرور؟

- (١) الأنعام : ٦٥ .
(٢) الأنبياء : ٩٠ .
(٣) الشورى : ٢٧ .
(٤) الأعراف : ٤٤ .
(٥) الحديد : ١٩ .
(٦) آل عمران : ١٨٥ .

لقد وصف الله أولى الآليات بأنهم : ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى
جنبهم ويذكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقنا هذا باطلا سبحانه
فإننا عذاب النار ﴾^(١) .

فهل يوقض أن يكون من أولى الآليات إلا الله؟

وأعد آهاب الله لخلقهم أن يسارعوا إلى جنه ﴿ عرضها السموات والأرض أعدت
للمتقين ﴾^(٢) فهل يكره أن ينتظم في عداد المتقين إلا الحق؟

إنني أطلب من إخواننا الذين يكتبون في المصنف أن يملأوا النظر في كتاب
الله ، وأن يستوحوا ما يستجدون من معان وغايات ، وبذلك وحده يتصفون أنفسهم
وطريقتهم ، أما تزويج ذكر الرجل لأمرة تستعبد عن هذا الضوء الكرم فأبهر
لا يستعجب ، ومن حقنا أن نرفضه .

لقد سمعت أشعرا تسب إلى رابعة العلوية ، بل حكى الرواة عنها - والصدمة
عليهم - أنها لا سمعت التذكير بتركاك الجنة وخيراتها ، قالت : ألسنا أطفالا . فتدري
بهذه الأشياء ، وسواء صح ما نسب إلى هذه السيدة أو بطل ، فعجن كما قال أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب في فاطمة بنت نيس - وهي صحابية أفضل من رابعة -
ولا تدع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا تدري أحفظت أم نسيت!

إن الجنة وعد الله لعباده نعماء هي ، وشكرا لمن أعدها للمتقين ، وهدينا لمن يصبر
إليها . تخرج في بحر حوتها ويسعد بربه الذي طالما صلى فضله في قلبه وعلى
إنه في هذه الجنة يشهد من كان يعبده بالغيب ، ويتلقى فضله في قلبه وعلى

بدنه . لذلك مادية مشابكة لا انقسام بينها ، ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما
وملكا كبيرا ﴾^(٣) عليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم
ذهب شربا طهورا ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان منكم شكورا ﴾^(٤) .

ونحن نلقت نظر المفسرين ألا يتخذوا ما شاع في البيانات الأولى من أوام
أو ما نسب إليها من أنعام فأولنا وثنا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا
من خلفه تنزيلا من حكيم حميد .

- (١) آل عمران : ١٩١ .
(٢) آل عمران : ١٥٣ .
(٣) الإسراء : ٢٠ - ٢١ .
(٤) آل عمران : ١٨٥ .

١٢. ماذا عن القضاء والقدر وكيف نوفق بين الآيات التي تدل على أن الإنسان مختار والأخرى التي تدل على أنه محير؟

يقول الله تعالى ميثاقاً عن حكمته في خلق العالم: ﴿وَمَنْ أَلَدَىٰ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيُقَاسِمَ أَتَمَّكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (١) أي إن هناك اختياراً كبيراً مفروضاً على الناس يتحقق بعده - معيهم -

ما هذا المصير؟ يقول جل شأنه في آية أخرى: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَبُوا بِالْعَنَسِ﴾ (٢) هناك مسمى ينتظره العقاب وحسن ينتظره الثواب

وتلك عدالة لا مطعن فيها! بيد أن بعض الناس يقول: هذا الامتحان مزور، وهذه النتائج مشوشة والذي حدث أن الله مآ للجنة! أمّا وأجرى الأمور كما شاء وستر مشيئته وراء قسور هذه النتيجة الهائلة!!!

الله يقول: إنه أرسل للبشر رسلاً يملئونهم على الصراط المستقيم، وقبل أولئك المرسلين منهم عقولاً يحسنون بها التفكير ويستطيعون بها الاختيار، وقال لهم: إنني أقطع بهذا كله أعماركم... أن تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ هَذَا غَالِبِينَ﴾ (٣)

أو تقولوا: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعِلُوا﴾ (٤)

لن يقل من أحد كلام بعد هذا البيان ومع ذلك يحى أناس معتمدون يقولون: لا شيء إلا الله لا حصل إلا الله، أصابعه وراء كل شيء، ونفى أن يقولوا: ما في الجية إلا الله، لا موجود غيره، نحن وهم ما نصنعهم وهم!

وأخرف أن وراء هذا التساوت وانكار الإرادة البشرية والقدرية البشرية من يزعم

(١) مود: ٧ - (٢) النجم: ٨١ - (٣) الأعراف: ١٧٧ - (٤) الأعراف: ١٧٧.

الشعوى ويدعى التصوف، ولقد ظل أولئك يتضادون حتى ماتوا أدنياً، وتحوّلوا إلى دواب تعطّلها السموم، ويلازمها لأربهم!

يبحث عن السبب في هذا الكلب، فوجدته أحياناً رغبة لبعض في أن يحترف ثم يرمي بالثبته على القدر القاهرة!

ودخلته أحياناً أخرى سوء الفهم لآيات القرآن الكريم، وجنّون الجدل الذي من بعض العلماء ثم فزع على جماهير الفوضى.

وبما نسا هذا التعامل الردود عن الخلط بين مواطن الاختيار الحق ومواطن الجبر القاهرة، فإن الإنسان يحيا بين جبر واختيار في كيانه الداخلي وفي حركاته الخارجية!

إن قولنا تدلّ دون استئذان ونقص في فهم وظرفيتها دون تدخل من إرادتنا، أفعلناك استئذاناً حين نتكلم؟

وقد يكون بعضنا أبيض الجلد والأخر أسود! أمسال من هذا الظنن كما يسأل الإنسان عندما يحسد ذا نعمة أو يزدري ذا علة؟

ودع هذه التمازج للظفر والظاهر والاختيار الحر، ونسوق أمثلة ما تشترك فيه الإرادة الإنسانية مع الإرادة الإلهية، فإن هذا الاشتراك هو غالباً المذهب الذي يلجأ إليه الجبريون ويستنون فيه تفسير النصوص.

إننا نستغل الكهولاء في بيوتنا للإذاعة والإشهاد والتشريد والتشجين، فنصور ساكناً جاءه المحلل يطلب منه لمن ما أقام من كهولاء، فقال له: إن التبار مر في الأسلاك من عندكم، والصبح عندى لا يمكن أن يضىء من ذاته ولو بقى موكراً يقول له المحلل: ماذا تصدق؟ يقول: لا أدفع لمن شىء أنتم السبب الأول فيما يقول المحلل: إنك تحرك القابض فتسمع الإذاعة، وتثير النازل... إلخ يقول له الساكن: لولا التبار الذى أرسلتموه ما تم شىء... هكذا يقول بعض الناس له: لولا إرادتك ما كان شىء، فلماذا أحسب؟

وتصور فلاحاً - كما قلت في كتاب لى - زرع حبشياً أو أفبونا، أو أى نبت مخبر، ثم وقف أمام القضاء يدافع عن نفسه يقول: كيف أحاسب على ما زرع الله؟ صحيح أنى وضعت بذرة نافعة، لكن من الذى زاعها وحملها لثمها؟ إنه القائل: ﴿أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الرَّازِقُونَ﴾ (١)؟

كثير من الناس يعالج قضاياه الدينية بهذا المنطق!

(١) الرزق: ١٤.

نحن نعلم أن الإنسان إذا أراد الذهاب إلى المسجد أو إلى الحشارة يقف قلبه بندق يقدر الله ، ويضع جهازه العصبي يصير أزميره إلى الأقدام لتتحرك يقدر الله ، ويقف الأرض دون خسف ولا زلزال باسم الله فهل معنى ذلك أن الله هو الذي دفع هذا إلى المسجد دفعا ودفع ذلك إلى الحشارة دفعا .

كلا كلا! إن للإنسان إرادة حرة ، بها كلف ، وبها صح اختياره ، وبها تم جزاؤه .

وكون الله أماته على ما أراد لنفسه ، أو أضج له ما ينز في أرضه ، أو أمده بالتيار الكهربى الذى أثار بهته لا يثنى مسئولية العادة عما فعل !!

الإرادة ميرة محقة مؤكدة فى الكيان الإنسانى ، بها حمل أمانة التكليف ، وبها تميز عن الجهاد الأصم والحيزان الأصم ، وبها يعلم أو يهوى ويسكر أو يكتفر

وعندما يتجه للو . يحض اختياره . إلى الإحسان والإساءة فإن تيار الإرادة للبعوث فى أرجاء الوجود طبع بين أصابعه ، إن شاء أمهه قدس فى النور ، أو لطفاً ليعطى فى الظلام .

آيات القرآن تؤكد هذه الحقائق ، ويجب أن نعلم أن القرآن يفسر بعضه بعضا ويصده ويكمله

إذا قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودُ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ . ﴾ (١) فلنساءل أنفسنا : من الذين يشاء الله إضلالهم ؟ ولنسمع الإجابة من القرآن نفسه ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيُفَعِّلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن هُوَ كَاذِبٌ مُّتَّبِعٌ ﴾ (٣) ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ (٤)

ليس الأمر إذن لى عنان رجل صالح كى يتعرض لعذاب الله ، لأن الله شاء إضلاله وتعذبه ، كلا ، وحاشا للبر الرحيم ، العدل الكريم أن يفعل ذلك .

هذا أمرؤ اتجه إلى الشر فذمته الأقدار فى طريقه الذى اختاره ، وهل يحضى العيب من ينزى الشوك ؟

وكما أوغل الشير فى الطريق زاد سمك المشاورة الضرورية على بصيرته ، فيظلم القلب وتعجز أهل الأرض عن إثارته ﴿ كَلَّا إِنَّهُ يَأْتِي عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٥) وهكذا يصنع الله بالمخاطبين فى آياته ، المستكبرين على الحق ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّكْتَرٍ جَحَّارٌ ﴾ (٦)

(١) التوبة : ٣٦ .
(٢) غافر : ٣٤ .

(٣) إبراهيم : ٣٧ .
(٤) غافر : ٣٥ .
(٥) التوبة : ٣٦ .
(٦) غافر : ٣٥ .

الأساس أن هذا الذى شاء الله إضلاله ، أصل نفسه أولا ، فأم الله له مراده كما قال : ﴿ قَلْبًا زَاغُوا أَزْوَاجَ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) وكما قال فى موضع آخر ﴿ وَمَن يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُسْلِمِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى . ﴾ (٢)

ومن السفاهة الظن بأن الله أزواج طلب هدى . أو أصل من اتبع سبيل المؤمنين!

وكما يشاء الله إضلال هؤلاء يهذى إلى الحق من ابتغاء وشبهه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَاتَّقَاهُمْ تَقَرُّوهُمْ ﴾ (٣) وقال تبارك اسمه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِذْنِهِمْ ﴾ (٤) وقال : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ (٥) وقال :

﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنَازِ ﴾ (٦) الذين آمنوا وتطيق قلوبهم بذكر الله ألا يذكر الله ﴿ (٧) إن المشية الإلهية ليست رمزاً للفوضى ، وعندما يقول الله : ﴿ وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ (٨) ومن يهد الله فما له من هادى ؟ فالأمر كما شرحنا وكما شرعته آيات أخرى مثل ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا ﴾ (٩) لى يزيده حيرة وعسى فيستجيب أن يعينه أو يتفقه أحدا ﴿ وَيُؤَيِّدُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى ﴾ (١٠) فيستجيب أن يضرهم أو يفسد بهم أحد بعد هذا العون الأعلى! حيث يكون التكليف الإلهى تكون الإرادة الحرة ، وتكون المسئولية الحاقية والمخاطبة فى الدنيا والآخرة

فإذا اعتدلت الإرادة لسبب ما فلا مسئولية البتة ، وكيف يكلف الإنسان بما لا يطيق والله سبحانه يقول : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِزْرًا مِّنْهَا إِنَّمَا عَلَيْهَا فَاإِذَا احْتَمَلَ ﴾ (١١)

قال لى أحدهم : كيف يكون للإنسان اختيار وإرادة الله نافذة فى خلقه جميعا؟ قلت : إن الله قاروت بين خلقه ، فهناك فارق بين الجدار والحداد والإنسان! الجدار لا يحس والحداد لا يعقل ، والإنسان يحس ويعقل ، وله ميزة فى تكوينه تجعل له معاملة أخرى غير معاملة الجدار والحداد!!

(١) الصف : ٥ .
(٢) يونس : ٩ .
(٣) التوبة : ١١ .
(٤) التوبة : ١١ .
(٥) التوبة : ١١ .
(٦) التوبة : ١١ .
(٧) التوبة : ١١ .
(٨) التوبة : ١١ .
(٩) التوبة : ١١ .
(١٠) التوبة : ١١ .
(١١) التوبة : ١١ .

١٣. ما دور المسجد في الإسلام؟

﴿فَبُيِّنَتْ آيَاتُ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُرَذَّرَ عَلَيْهَا اسْمُهُ...﴾ (١) أحبا! انصبروا أن أرفع ما ليس للعالمين ولغيرنا إنما هو للساكنات الطهور التي تخصصت للرفع السجود، فبعد أن كانت أرضا عادوية يمشيها أي إنسان أصبحت أرضاً لا يدخلها إلا موقوفين، وبعد أن كانت لأي غرض جادى أصبحت موقوفة موقوفة بين الناس ورب الناس، ومهما كان للمصالح الروحية الذي يقبل البشر من ما ربح البشرية إلى مناجاة الله وتبجيله وتحيته.

ليس هذا ارتفاعاً ممتدداً للأرض نفسها؟ أحسست ذلك وأنا الطالع ما جاء في السنة الطاهرة أن رسول الله ﷺ دخل فأتى يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة فقال: «بها يا أمية، متى رأته جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزمتهني ووليد بن ياسر رسول الله؛ فقال له: ألا اعلمت كلمات: إذا قلتمين أوجب الله عليكم هذا، وقضى دينكم، قال: قلت: بئس يا رسول الله.

قال: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الخبن والسخط، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال... فقلت ذلك فأنهى الله عني عني وقضى ديني.

هذا رجل أحرجت الأيام ، ومثل أن يذهب إلى بيت واحد من الأضيياء يستجديه ، ويرقب الفرج عنده على نحو ما قبل :

سبعة الطير حيث يستقر إلى سوا وفيه منى من الأكرساء!

ذهب إلى بيت الله لا يرجو جملة ، ويطلب دائماً لهم يحب سعيه ، ولم يزل همه ... لقد فنته كلمات تملها من صاحب الرسالة غيبت نفسه وحياته ...

وإذا كان الرسول قد استغرب وجود الرجل في المسجد في غير وقت صلاة فإنه حرم على المسلمين كافة أن يشعروا إلى المسجد وقت الصلاة وقال : «إن صلاة الجمعة أفضل من صلاة النذر، ويستحب وعشرين درجة».

(١) البقرة: ١٦١

إن معاملتي لسانك السيارة غير معاملتي السيارة نفسها ، الفارق واسع بين القائد والمقود والراكب والركوب، والمسلطة بينهما في التكليف حق.

ودكر لي آخر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُؤَدِّ اللَّهُ أَنْ يَتَذَكَّرَ فِي حُجْرِهِمْ مِنْهُمْ لِيُذْهِبَ اللَّهُ عَنْهُمْ صُغُرَاتِهِمْ﴾ (١) ثم يقول: ﴿ثُمَّ يَنْفَعُ اللَّهُ صُغُرَاتِهِمْ حَتَّى كَانُوا يَتَذَكَّرُونَ فِي الْمَسَاجِدِ كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢).

وقال: ليست هذه الآية نصاً في سبب الهداية الإلهية والإصلاح الإلهي؟ قلت له: أنت وأمي تدبر حكام الآية الكريمة تعد متنازع للنسب الذي غاب عنك ﴿يُعَذِّبُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

إن الرجس الذي خلق صلواتهم نشأ من عدم إيمانهم ، فلما رفضوا الإيمان وضعت به حلوتهم جزوا بها الصيق والطح ، أما الذين رفضوا بالحق واستمروا إليه فقد استحقوا الهداية العليا وكوّنوا شيع المصير.

ذلك ، والاختيار بين المهجين مصعب الزور في كل يوم ، بل في كل لحظة ومفاد هو السر في أننا نطلب من الله الهدى في صلواته القومية نحو خيرين مرة بالليل والنهار. إن ظروفنا مائلة تحيط بنا لأمرنا ألدنا ولا قدرتنا ما أصبح بآرائها ، وما أنشبه الإنسان بوزن وحى الصنع ، يدمر في بحر بني يمشي موج من فوق سمحاً بها يثبت الإنسان بالتوفيق الإلهي ، ويسأل ربه الخجالة.

ومن المعمل أن نغز بين الأقدار التي تحيط بنا وتحمك فيها ، والأعمال التي مولينا بها ونسأل عنها.

وأي أن إنكار الاختيار المبشّر ضروري من وثائق المعجزة ، وإتمام الصفات القروية ، وهذه معجزة . ما الذي نحاول بهما الملك؟ يقول الله سبحانه: ﴿لَتُنْفِئَنَّ أَصْحَارَ الْحَقِّ زِيَادَةً﴾ (١) ثم يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا الشَّيْئَاتِ أَجْرًا سَيُفْعَلُ بِهِمْ﴾ (٢) ثم يقول عن الجراء الأخير ﴿هَؤُلَاءِ يَكْفُرُونَ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَتَتْ وَرَدَتْ إِلَى اللَّهِ نَوَالَهُمْ الْخَبْرُ﴾ (٣) فأي الظالم أو الجائر في هذا الصنيع؟

(١) البقرة: ١٧٥ . (٢) البقرة: ٢٦ . (٣) البقرة: ٢٧ .

ومن رسالة المسجد خلق نظام الصف ، وتوحيد المسلمين عليه ، والقريب أن أمتنا أبعد الأم عن احترام نظام الصف والفتوح له . . . مع ما لورد في تنظيم الصفوف بالمسجد من توحيد وتشديد .

ونأمل في هذا الحديث عن أبي مسعود : وكان رسول الله يسبح مائة الف مرة في صلاة ويقرأ القرآن ويستغفر لنفسه ولغيره مائة الف مرة ، وكان يقول : لا صلاة بغير هاتين الصلوات .

وفي رواية : «الجمعة الصفوة وحفوا بين الكتاب وسدوا الخلل وبنوا بأبيهم إخوانهم ولا تروا فوجت الشيطان ومن وصل صفا وصفه الله ومن قطع قطعه قطع الله» !

لقد قرأت في حرب فارس أن صفاء من المجاهدين كان يغير نهرا ، فسطح كور أحد المجاهدين فترث الصف كله حتى حشر الجند على ما سقط منه ! أنهم يتحزون بروح الجماعة ، ولا يتحزون كأنهم عند انقضت حياتها

وكم يشعر المسلم بالأسى وهو يرى أمتة في زحام الجبهة تحركه بروح القطيع ، لا يهتم للزور إلا بنفسه ومصلحته ! هذا الشعور الهابط يقتل المعنويات في مناسك الحج ، لأن نظام الصف ، والإحسان بالغير مقفود عندنا ، فالمسجد لا يؤدي رسالته ! ومن رسالة المسجد رفع المستوى الثقافي للأمة ، وذلك من طريقين : الأول تدبر ما ينشأ من القرآن في الصلوات الجماعية وخطب الجمعة ، ولقد إن كتلي يتحدث في العقائد والمبادئ والأخلاق والقرآنين والفتن الحلية والدولية وصف الكون ويرد التاريخ نظما يتحدث عن الله وصفاته وحقوقه سواء بسواء .

وقد كان ذلك المصدر الأول للمعرفة عند السلف ، إذ أن سابقاتهم الملتزمة مكتبهم من الاستعداد البشري من آيات الله ، وألقى أن الذين آمنوا للرسول الكريم ولم يتركوا كتابه بالو شأنا لا يفارح من السمو الفكري والبرورى ، وليس عجبا أن يعتنقوا مسائل هدى في أرجاء الأرض وتعلوها من الغلات إلى النور .

أما الطريق الثاني لتعريف الأمة فهو الدروس التي انتظمت في ساحات المسجد ، تتناول جميع العلوم بل إن الشعر كان يلقى في المسجد ، وكان الصلابة يستعملون إلى حسان بن ثابت وهو يشهد قصائده السياسية .

ومررت أن الدارس للفتنة الكبرى كانت في المساجد وأن الأمة المنظمة كانوا يقرنون تلايلهم فيها ، ولفظة الإسلامى يعنى على كل ما يعم البشرية من الهدى إلى الهدى .

وذلك أنه إذا عرفنا ما حسن الوضوء ثم عرفنا إلى المسجد ، لم يبقه حقوق إلا رعت له بهادر جهه وحصلت منه خطبة ، فإذا لم يترأى الصلاة تسمى عليه ما دام في الصلاة ، تنزل الله صل عليه اللهم وجمعهم ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة .

والواجب أن تتوطد صلاة المؤمن بالله المسجد ، وأن يكرر التردد عليه صباحا مساء ، بل ينبغي أن يتلقى به قلبه وأن يرد له جبهه .

قال عبد الله بن مسعود : لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا مساقا لم يعلم قاله أو مريضا ، إن كان المريض يشفى بين الرحلين حتى يأتي الصلاة ، قال :

إن رسول الله عندما يسن الهدى ، وإن سن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه ، قال عبد الله ، وما منهم من أحد إلا والمسجد في بيته ولو صليت في بيتك وتم وتركت مسجدا كتركت بيتك ، ولو تركت مسجدا لم يترك بيتك .

وجوهو الفتوة يرى الجماعة في المسجد ستة موكدة ، ولا ريب أن التجميع نزع أسيه جادة في تدايم الإسلام ، وأن الجماعة من شملته الملقى .

والإسلام يحارب بذلك اللذين التهم القدر من الحياة المعجز من موانعها ، كما يحارب بعض اللذين الذين يحسبون أنفسهم أركى وأقى ، وأن مخالطة الناس تنقصهم فهم يؤثرون الميزة ويهتزون الغير ، ويقولون كثيرا في صدورهم ما هم بملهي . وأمل أرواك اللذين عناهم ابن عباس لا تسلم عن رجل يهود الشهاد ويقوم الليل ، ولا يشبه الجماعة ولا الجمعة ، فقال : هذا من أهل النار . . .

إن رسالة المسجد في الإسلام حشد المؤمنين في مسجد واحد ، ليصاروا ويتجاورا ، ويتمازروا على البر والحق ويبنوا مآبئهم من شئونا !

وهذا التلاحق النور ليس حشر أجياد ، إنا ما ندمنا الفرد في المجتمع على أسس من الحب وطلب رسالة الله ، وعلى كل مسلم أن يرتفع إلى هذا المستوى ، وأن يقتل نزاع الأناية إذا حدثته بالميزة لاسر ما فقد جاء في الحديث : «لا تلاتا لا يمل عينهن قلب امرئ مؤمن أن لا يهتد أو يهتد أحد من العمل لله ، والمصلحة لأمة المسلمين ، وتزداد جمعهم لربهم فدهم معيهم من ذرئهم ، أي إن يرك الله على الجماعة تشمل الكل وإن كان بينهم من هو دونهم كما جاء في حديث آخر : «به الله مع الجماعة ومن شذف في الشورى» .

١٤. لماذا كانت الصلوات خمساً في اليوم؟ وما هو شكل الصلاة المقبولة؟

كما يحتاج الجسم انشط إلى درجات حرارة ، ونجد ما يلي من خلاياها ، ونحفظ عليه عاقبت ، تحتاج النفس الإنسانية إلى درجات أخرى تعينها على التطبيق ، ونفهمها من الأسطاف ، وتستفاد من أوضاع الفتنة والمزول ونشفي الأرواء والأفناء .

إن الإنسان - يحواف من طيمه - يجب أن يذكر نفسه ونشفي ربه ، يجب أن يفهم مصاعبه وحدها ولا عليه أن يفتح الآخرين ، يجب أن يأخذ ولا يطي ، وإذا أخذ فالتشكر تقبل عليه ، وإن شكر فكلمات خفيفة ... ثم لا حق بعد لاحدا !!

وقد فرض الله الصلاة على الناس طهرا من هذه الدنيا ، وتزينة على جميع الأعمال التي تصح بها إنسانيتهم ، وتكمل بها عبوديتهم ، وتتم بها رسالتهم في هذه الحياة ، ومن غفلوا إلا لجهادته سبحانه؟

وكون الصلوات عدداً معيناً تكون السموات الحزابة التي يقتصر إليها الجسم عدداً معيناً لا تتحقق الثمرات المطلوبة إلا بهذا القدر ، ويقع الخطأ الذي والادنى بقدر عنا وحقا !!

وتنظر إلى حقيقة الصلاة التي شرعها الله للناس ، يقول الفقهاء من علم الصلاة : إنها أركان وأعمال يبدؤ به بتكبير الله تبارك اسمه ، وبخاتمة بالسلام على جاد الله جميعاً ...

تقاراً : أما الأفعال فقد استوعبت صور التحية التي كان يقدم بها الناس إلى رؤسائهم وعلماهم بعد تحريدها من المقاصد الربنية (الوقوف الخاصخ العمود الرئسية الركوع والسجود) اللذان هما نهاية الاستكانة والاستسلام . ١٠

ولما كنت مدبراً للمساجد وضعت لأيام الأسبوع السنة غير الجمعة ستة فترات في التفسير والحديث وفقهه والتاريخ والمقيدة والأخلاق ، أما يوم الجمعة فخصه الخلية ، وأصدرت لذلك كراسات تحفيز تراجيع بنيانية ...

... للمختصين

وكان رأيي أن تنفي المساجد في المدن وتقرى على أسس مسجداً واحداً كبير لكل ثلاثة آلاف من السكان ...

إن المسجداً كان القلعة الروحية التي ينطلق منها المجاهدون المقاومة كل غزو ، وقد قام الجميع الأحرار الفريسيين منذ قديم حتى احتلوه بخلهم ، وقام الإنجليز أولاً هذا القرن ، وكان يستغل الأحرار من أنيط مصر للذين يحاربون الاستعمار وماززون أنوارهم المسلمين .. وقد روى التاريخ كيف أن امرأة من الصليبات سمعت الخطيب يتحدث عن الجهاد - أيام الحروب الصليبية - فقامت شمرها ، وأرسلت الغصن إلى الإسم مقترحة أن تكون قيد جواد لأحد المجاهدين ما جعل المسجداً يفتح بالحماس ، وأقرى الرجال بالتفاني ..

هل انهرزت أوروبا في حملاتها الأولى إلا بهذه الشاعرة ، ومن تراجيع الاستعمار الجليلد إلا بالروح نفسها؟



وإذا قال : ﴿لقد صدقوا الصراط المستقيم﴾ صراط الذين أعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ؟ قال : هذا تغييرى ولستى بمساأل أى أفضليته ما طلبت .

ويكرر هذه المعاني حتى : فإن قيل نعم الله متوافقة تجيب تكرار الشكر ، وذكر الله بهداهة العباد ، وأسماؤه الحسنى شاه صادق صادق وصدق مستحب ، والشعور بديم البديرة وملكه القائم على كل نفس بما كسبت يكفك الغرور بالدنيا . . .

وتعهد العبد أن يعبد الله وحده ، ويستعين بالله وحده هو رب العرش . وإذا وفى الصلى بعهده ، وسأل ربه أن يرزقه منه ما يطلب ، وأنقل ما يطلب الإنسان هل ينفعه بالخراف ، ورضا بقية الطرد ، ونعمة تفر بها عنه ، وسدادا ببقية الخيرة . . . لا الخشرب بذلك سعادة الدنيا والآخرة . ١ .

وبع فائحة الكتاب بقراء الله ما يشاء من الكتاب نفسه . وفى هذه الوفاة معرفة آخر بالحق الأسمى ، وما فيه من تبصرة بشؤون الحياة كلها . . .

ثم يركع الصلى سجدا ربه العظيم ، فكلم من سكان الأرض يشرك به أو يعبد وحده ، أو يجهل ما ينبغي له من نعمت الكمال ، أما المسلم فهو يخالف أولئك جميعا ويؤد ربه عما لا يليق به من نقائص ، وهو مؤمن بأن تزيهه هذا قد صعد إلى الله الجدير به وأذلك يرتفع من ركوعه قائلا : سبح الله لم حمده . . . أى استجب الله لن ألقى عليه وحمده .

وكان رسول الله ﷺ يرتفع من ركوعه أحيانا ويقول : اللهم ربنا لك الحمد لله السجودات ومولى الأرض وما فيها من بعد ، أمم الله وأبعد ، أجمع سائر العباد . وكذلك عبد لا ملحق بالاعلى ولا مفضل له صمت ، ولا يرفع ذراعه منك بعد . . .

ورسنى الجملة الأخيرة أن البرء لا يفتنهم عند الله ما قال فى الدنيا من حظوظ الرزقة والنعمة ، وليس تلك دليل على القربان إلا على ﴿لله تستطع الرزق﴾ . . .

يخاف ويغير وتقرؤا بالحقية الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا نافع ﴿١﴾ . ثم يهوى العبد ساجدا يستح اسم ربه الأعلى ، ومع كل ركوع سجودا بالدنيا والإنسان يكون فى أذى الأحوال وأشربها عندما يضع جبينه على الأرض بين يديه ربه ، فليج يا شاه .

فإنما الصلاة أن تقوم لله قانتين ، وأن تركع وتسجد له معطيين ، وأن تقدم معنيين قائلين له : إن هذه التحيات التى أدبناها ، وكل عمل صالح نقوم به فى حياتنا هو لك وحده بارئيا كبيرا .

الذين ربنا أعلاما لربنا التحيات الطيبة تقدها له . سبحانه . صباحا ومساء ؟

بلى وهو أهل التقوى وأهل المغفرة لك يقول الله لكل مسلم : ﴿وَأَقِمَّ الصَّلَاةَ ذِكْرًا فِي النَّهَارِ وَذِكْرًا مِنَ اللَّيْلِ إِذَا اَحْسَنَاتْ يُدْخِلْكَ الْمَنَاجِزَاتِ ذَلِكَ ذِكْرُكَ لِلَّهِ كَرِيمًا﴾ (١) .

وبه أوصى الله بكافة فى أداء هذا الواجب واستقبل تكراره لم يقل الإنسان قبل الشكر إلا بى عود نفسك ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُبْخِعُ أَمْرَ الْمُصْبِرِينَ﴾ (٢) . وكثفت أفعال الصلاة أو تنقلها أحوال كثيرة والطوب أن يكون الصلى حاضر لروح حين يتكلم ، فإذا بدأ صلاته قائلا : الله أكبر ، فمضى ذلك أنه فى موقف جليل يجمعه مع الله فليتبها .

ويسمى الدعاء ، هذه التكبيرة تكبيرة الاحرام ، كان الإنسان حرم على نفسه الاتبعال بغيره آخر لأنه لا شىء فى حاجة الله ، والاتعات إليه وحده . . . والأقوال التى يرددها الصلى كثيرة ، لعل أهمها تلاوة أم الكتاب ، وقراءة هذه السورة لئس اختيارا فى الإغتفاء فإن كلماتها تلى لقاء حيا بين الله وعبد ، العبد يتكلم ولست يجهلها .

فى الحديث القدسي : «قسمت الصلاة لثنتين وبين عبدى نصفين ، لمنصفها لى ونصفها لى ولستى بمساأل . . . »

فإذا قال للمبد : ﴿لحمد لله رب العالمين﴾ قال الله عز وجل : حمدنى عبدى . وإذا قال الرحمن الرحمن ؟ قال الله : الذى على عبدى . . .

وإذا قال : ﴿لما لك يوم الدين﴾ قال : لك . حمدنى عبدى . . . وإذا قال : ﴿يا ذا الجلال والإكرام﴾ قال : لك . هذا يبنى وبين عبدى ولستى بمساأل .

١٥. ماذا يرمز إليه الوضوء؟ ولماذا لا تصح الصلاة إلا به؟ ١٥

نظرت إلى بعض الأشجار القريبة منا وكان جيل البحر قد كساها ، وجعل أرونها دافئة ، ولم تثر أتباعها وجعلها دون توقف . . . وشاء الله أن يخلر السماء بعد قليل ، وكان مطرا غزيرا ، ومرتت بالأشجار نفسها فكان منظرها مجيبا كانت خضرتهاا تزهو ، والأوراق تحت أشعة الشمس طليعا فقلت : ما أحسن النظارة ، أيزرت الخلقية الطبيعية في جعلها الأصل ، ووشيت القلوب على الإحباب . . .

كذلك جسم الإنسان ، إن النظارة تجوه وزكيه ، والجسم الإنساني أخرج من غيره إلى التطهير الدائم ، لأن سعاهبه لا تحي من الجبار وحده ، وإنما تحي من إبرازات الجلد والأعضاء ونقايات الأجهزة التي لا يهدأ حركتها ، ولم أر نظائلا للتنقية والطهيرة أدق من التشريع الإسلامي في إحترام الجسم وإزالة القلبي عنه ، واستعمال ما يبيته واستبقاء ما يزيه . . .

والوضوء من شعائر الإسلام المردة في الحياة الإسلامية ، وهو من الوضوءة إلى الحسن الباهر ، ومعنى تلك أنه فرق النظارة أنه تطهية وتخليقة ، والنظارة قد تعني إزالة الأوساخ وحسبا

كلية الغسل في اللغة لا تعني إسالة الماء ، فقط ، يقال : غسلت السماء الأرض إذا كان المطر بالغ الشدة ، وإذا فرض الإسلام غسل أعضاء معينة فهو يريد بتلكها بما يظهرها ولا يترك أثرها منفردا فيها .

وقد أوجب الإسلام الوضوء كما فرض جملة من الأفعال التي تشمل الجسد كله ، وتستطيع جعل الوضوء رمزا لافسحة الإسلام في تكوّن الجسم الإنساني فأعزازه إذ إن هناك عقائد تعلم حيا على هذا الجسم ، وتزوي الأرقاض في أعماله لافسحة وأجود عليه ، وذلك في وضعها لتزقية الروح .

والواقع أن الإنسان معنى وروحي وقلب وقلب وعزل المادة عن الروح صعب .

وكان النبي أحيانا يقول في سجودته : «سجدت وجهي للذي خلقه وسوره وبعث سمعه وبصره» ، يقول الله الحسن الخليلين ، أو «سجدتان ذى المنكوت والخبير ووت والمطهرة» وهذه الخركات كلها يكتمها الكثير بعدما أو شجنا . . .

وفي العمود الأول أو الأخير يذكر الله أنه كل ما سبق من أعمال وأنوار تحيات لوجهه الكريم ، فهو يقول : «تحيات لله ، وصلوات الطيبات ، ثم يأتي السلام على صاحب الرسالة العظمى لقاء ما علم ومنى لأرشده ، وكان هذا السلام إشارة إلى أنه الأموة الحسنة» في إقام الصلاة ، وشرار الشرائع التي جاء بها ، ثم يرسل سلاما آخر على نفسه وعلى عباد الله الصالحين . . .

ما أحلى هذه الكلمات كلها ، وما أنرف الصلاة التي يكلف المسلم بأدائها . . . والله أمران : أحدهما عقلي والاخر قلبي ، أما العقلي فيجب أن يعلم ما يقول ، ويعرف ما يتأذى به ، فقد جاء في السنة أن البراءة لا يجب له من صلاته إلا ما عقل منها ، أما أن يكون سكونا بعمرة الدنيا ومواقفها ، ثم يقف تأملا لا يدري ما يتكلم به فهذا مبرط وضياع ، لا تقرب الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ؟ (١) .

أما القلبي فإن الصلاة تورت الشروع والادب والخشية ، وهي مبراج روحي يرقى بها جبه إلى الللا الأعلى ، أيها - إن أقيمت كما شرع الله - توبة كاملة فهو الخطايا محمرا ، وتظهر النفس قال علب الصلاة والسلام : «أزأيتون أن يسأب أحدكم نهرها يغسل فيه كل يوم خميس مرات ، ما تقولون يا أيبي ذلك من ذرية شيتة» ، قالوا : لا يبي ذلك من ذرية شيتة ، فإنا ذلك مثل الصلوات الخمس يصنع الله بها الخطايا . . .

والأسلى أنها تدعص من الخطايا ، وتقول دون مواقفها كما قال تعالى : ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ (٢) .

يبد أن البشر ضعاف وقد تعي لأدتهم أمام إغراء شيا ، ويذلهم الشيطان فهل يتأسرون من تسلل ورسا ورد إلى الله ؟ كلا ، فلغيرعوا إلى الصلاة فهي تنقي أرواحهم وتند حوائثهم إلى الصراط المستقيم ، المسلم لا يذهب إلى كاهن يأخذ بيده ، فليس الكاهن خيرا ، ولو فرض أنه خير فما ينبغي إلا نفسه ولا صمغ إلا إلى الله . . .

(١) المسكوت : ١٥٠ .

(٢) النساء : ٤٣ .

صلاة الجماعة عن الآخر!! كما تدب لب أكل ثوبا أو مصلا أو فحلا أن يعتمد عن الجالس المأمن ، وعالمهم الإسلام في استعمال السواك كثيرة ، ويمكن الاستعانة بالمأخوذ التي تنظف المم ، وقد تنفي مكان السواك ..

والغريب أن الإسلام لم يكلف بالمطهرات التي فورها ، بل ضم إلى ذلك التبرين الذي يصلح الهيئة ، ويطلب الاحترام ، وقد رأى داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : أوامات امرأة من وراء سريرها كتبت : إن رسول الله ﷺ لم يصب يده ، وقال : سأفادى أبي رجل يدا امرأة فقلت : يا امرأة إنا نقول لو كنت امرأة لغيرت أظفار لي يعني بأظفاره - أي ظهرت حمرة أظفار على الأظفار!!

وعن عائشة أيضا أنها بنت عتبة قالت : يا رسول الله ، بيض ، قال : لا يبيض حتى تغيري كفيه كما يبيض ، أي وحش !

وتحمل شيء غير التبرج ، التبرج إباحة الفرائض المسكحة بصورة قبل بها نحو الإثم ، أما التجميل فهو إبراز الجمال الطبيعي في إطاره المأدب المعتدل ، وجمال الأتوية غير جمال الرجولة ، والإسلام يرفض تشبه أحد الجنسين بالآخر ، وليس معنى نفى المرأة عن التبرج أن تكون دميمة المظهر أو كبريئة الزائفة ، كلا ولكن حسنة الهيئة مع الاحتشام ، ولكن طيبة الرائحة دون تعطر صاخب . ١٠

قلنا : إن الزمومة من الوضاعة ، أي الحسن واللاحة والإشراق والحياء الإسلامية الأولى كانت آية في الثقافة والارتقاء ، فلما ساء معنى الدين وانحدر مستواه ظن البعض أن الهيئة ليرة من الدين بأن إعمال الجسم دليل على التقوى وطلب الأخرى ، وألقى أن الشكل القوي دليل موضح مشوش وأن من أهمل حتى يده لا يفتنى على كثير من الحق . ١١

أما نستحي - وقد أحسن الله فريضة إلى نفسه - أن تنافي عنها؟ ألم يرضى في الكتاب العزيز : **وَقُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالزَّيْنَاتِ مِنَ الرِّبَا** (١) ؟ إن الله يريد وضاحتها فلم يريد من المأمنة والرتابة ١٢

إن الزمومة رمز إسلامي لكل أسباب لظافة وأريية ، على أن يكون وراء ذلك بديهة فكر نظيف ، وللب رائق حيل ، فيكمل الإنسان جودا ومظهر وحقيقة وصورة ١٣

والفرض أن يكون المعنى الشرف في معنى نظيف ، وأن يكون القلب الطيب في أهال نفيس . ١٠

رأى مسلم من عمر بن عبيدة **كَانَ** قال : سألت رسول الله ﷺ : كيف الزمومة قال : **أما الزمومة فأنه إذا تواضعت فغسلت كفيه ، فأنقذت يدها ، وضعت وجهه ، وبه يديه إلى المرفقين وسعت رأسه ، وغسلت رجليه إلى الكعبين خرجت من خطايا ك يوم وليلة** ١٤

قال أبو أمامة : يا عمر بن عبيدة ، انظر ما تقول إذا كان هذا يعطى في مجلس واحد قال عمر : أما والله لقد كنت سعي ، وأنا أجي ، وما لي من ثياب كاذب على رسول الله ﷺ ، ولقد سمعته أقاربي وعاهه فلي من رسول الله .

ولواقع أن الجزاء المذكور ليس على مجرد الزمومة ، فإن الزمومة وسيلة إلى الصلاة ، وعلى ذلك يظهر أن إيمان حسن ، وسلامة إيمى زموان الله ، فالتواضع للرب مظهر فيه إلى جملة هذه الفضائل المترابطة ، وقد تأكد هذا المعنى من أحاديث كثيرة . ١٥

ولزمومة وحده لا يصلح إذا كان الجسم بحاجة إلى تطهير تام ، كما في حالة الجنين والمجنون ولغيرهما ، وقد أمر الإسلام بتبجح ما يورث الجنين حتى لا يبقى أي أثر لنجس ، وكانوا قديما يستعينون ببعض الأعصاب والألياف لإدراك النظافة المطلوبة ، وفي عصرنا توصل العلماء إلى مواد كثيرة يمكن استخدامها لتحقيق هذا الغرض . ١٦

إن العلم كالأطبيب ، كلاهما يريد الكمال للإنسان ، والطبيب في كشمومه ولا حوائج يتناول الجسم كله لا يستحي منه شيئا ، وكذلك قبل الإسلام وهو يقبى الجنين ويحمله ، أنه لم يتخرج من ذكر شيء مهم في الحديث قال رسول الله ﷺ : **«الأمعة خير»** ، المختار ، والاستعداد لإزالة الشعر حول الموانع الحساسة . وفي الشارب ، وتقليم الأظفار ، وتصفيف الإبط . ١٧

أي أن في المحافظة على النظافة السليمة - وهي جوهر الدين - أن يتعهد المرء بده ينفذ الآداب . ١٨

ومن أمثال شعر رأسه وجب عليه أن يظلمه ويسرحه ولا مانع من تطهيره ، وفي الحديث : **«من كان به شعر فليخبر به»** ١٩

ولا بد من غسل القدم وتبجح الإنسان ومنح الفضائل من التنظف بين اللثام ، إن القدم المنيعة لرائحة بلاء على صاحبه ، ومصدر رأى لأصحابه ، وقد أسقط الإسلام

١٦ ما حكمته الحج ولماذا كان الطواف حول الكعبة

وهي بناء من حجر؟

سمعت أحد العلماء يقول: إن الله كلّفنا بما نعمل فاعلمنا ، فإذا أن ينزلنا بأعمال الحج ليرى : أطيعيه فيما لا نعمل أم نَعْصيه؟ قلت له : هذا كلام رديء ، وأعمال الحج تربط بحكم لا ينكرها العقل ، وقد شرحتها في موضوع آخر ولا بأس من إعادتها هنا .

إن الأهم تظلي بكثير من ذكرها هنا ، وتقرن به مشاعر نفسية واجتماعية بعيدة المدى ، وقد ربط الصاوي ، بقبر السجح وطريق الألام ، كما يقولون ، وربط اليهود أنفسهم بحائط الديهي ، وأمسوا عليه حقوقاً ما أنزل الله بها من سلطاناً فلماذا يستغرب من المسلمين أن يرتبطوا بأماكنهم القديمة ، أو بناطها - يبدو - عندما يحرصون القرب إلى الحشد ، وأبعد من الحرم؟ ..

للكعبة هي البيت الحرام الذي بنى لإعلاء فيه وعنده الصلوات لله وحده ، وقد قيل لإبراهيم وهو يؤسسه **ولا تشرك بي شيئاً** وتظهر بيني العاتقين والقاتلين والركع السجود **﴿١﴾** .

وملأ المسجد الحرام - أضيق الكعبة - هو أول مسجد بنى في الدنيا لتوحيد الله ، وبند الشركاء ، وتحجس العباد لرب العالمين .

ليست لهذه الأريية حقوق؟ بله ، وطلبة هذه الحقوق إلا يشاء مسجد في العلم إلا الله وإليه وشارك غايته في التوحيد الخالص ، وكذلك من هذه الحقوق المقررة أن يبتعث كل قائل ليزور هذا المسجد الذي أصبح قبله حياً ونبياً .^١

هذه المعاني هي التي ذكرها القرآن الكريم في أثناء أخديت عن هذه الكعبة :

(١) الحج : ٢٦ .

والرموه ليس شرطاً لذكر الله سبحانه وتعالى ، فالسلم يستطيع أن يذكر به في أوقاتة كلها جنباً أو ظاهراً ، بل يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم - فيما أرى - ويستطيع الحائض تارك . والرموه لا يحض أبداً ولا يأتية حاضاً ليدنه يمكن الحائض منه على عجل ..

أما الصلوات للركبة كلها ، فيستعمل المخلول فيها دون طهر ، والرموه كاف لن قام به حجت أصغر ، أما الصلوات الأكبر فلا بد من غسل ..

وأما الشريط تلك حتى لا يتجاوز الزمن في شئون الطائفة ، وشركها لا يغير بيزه ، فما أسرع الناس إلى الفرص فيما لم يلزموا به حتماً ، وإذا كانت الصلوة من أركان الإسلام الخمسة ، فإن الطائفة تعدد من الأركان لأنها تعبد لأمانيه منه للصلوة ، ثم جاء تفسير القرآن بعد ذلك أهم وأكف إذ أمر بالتحاذ الزينة عند الوقوف بين يدي الله : **وَأَمَّا أَنِّي فَأَتَمُّ عَزْماً رَبِّيَ عَزِيدٌ كُلِّ سَجْدَةٍ** **﴿١﴾** .

والطائفة خلق قبل أن تكون عادة تتبع الفسق أو العفقر ، ومن كان شديد الحس بطهارة جسمه لن يعلم أية وسيلة تجعله تلياً وسيماً وكرم من فقير ظلف ، ونفس عرج **١٠٠٠** .

(١) الأعراف : ٣١ .

﴿إِنْ أَرَادَ بَيْتٌ رُفْعَ النَّاسِ لِنِسْكَ مَسَارِكًا وَهَدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (١) ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعَةِ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (٢) ﴿فَلْيَرْكَبْ قِلَّةً تَرْخِصُهَا قَوْلُ وَجْهَانِ شَطْرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحِجَّتُ مَا كُتِبَ تَوَكُّؤُا وَحُجَّتُكُمْ شَطْرَهُ﴾ (٣) ...
من أجل ذلك تبعث الوفود من المشارق والمغرب لتبزي البيت الذي تعصلي إليه ، ولتطوف حوله طواف تقدير واحترام
فإذا يقول الحجاج وهم يطوفون بهذا البيت ؟ يقولون : «إِنَّهُ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ»
لأنه لا شريك له الحمد وهو على كل شيء قدير ، يقولون : «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» ...

إنهم لا يصلون البيت وإنما يصلون رب البيت ، والطواف كما أجمع العلماء - صلاة لا يد لها من طهارة البدن لا بد فيها من خلوص القلب لله .

ومن زعم أن الكعبة كلها أو بعضها يضرب أو يضرب فهو خارج من الإسلام .

ومن حق رب البيت أن يضع طريقاً لزيارة بيته ، فإذا جعلها طوافاً من سبعة أشواط فليس في الأمر ما يستغرب ، ففنى طول الدنيا وعرضها وتوضع طرائق شتى للاستغالات والاستعراضات !!

وحكمة أخرى لا تقل جلالاً من سابقها ، ففسر الطواف حول البيت العتيق ، إن الأمة الإسلامية التي تبلغ ألف مليون من البشر ، وبلدت دعوات حارة على كسبة الرسولين الكبريين الذين تولوا بناء هذا البيت دعوة ملؤها الاستسلام لله ، والرغبة في مد عبادته من الآباء إلى الأبناء إلى الأحفاد إلى قيام الساعة ﴿وَمَا وَاجِعًا مُسْلِمِينَ﴾ لك ومن ذُرِّيَّتَا أُمَّة مُسْلِمَةٍ لَكَ ... ﴿كَمَا أَنَّ هَذَيْنِ الْوَسِيلَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ دَعَاؤُهُ أَنْ يَجْعَلَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ نَبِيًّا يَعْلَمُ وَيُؤَدِّي وَيَتَوَلَّى آيَاتِ الرَّحْمَنِ الصَّادِقِ ، فَكَانَتْ بَعَثَةُ النَّبِيِّ الْخَاتَمِ بَعْدَ قُرُونٍ طَوِيلَةٍ !

أهناك ذكريات تاريخية أعم من هذه الذكريات ؟ فإذا لم يهيج المسلمون البيت الذي بدأ عنده تاريخهم ، فأين يحجون ؟ وإذا لم يقصدوا البيت الذي كان تبهم دعوة مخبورة في ضمير عند بنائه استجابها إله وإزارها ، فأين يقصدون ؟

(١) آل عمران : ٩٦ . (٢) آل عمران : ٩٧ . (٣) البقرة : ١٤٤ . (٤) البقرة : ١٧٨ .

إن الكعبة بناء من حجر ، ما بنيتها أن تكون بناء من ذهب ولا يرضعها أن تكون من خشب ، المهم هو المعنى الذي يعطيها .

رجل واحد هو في طاقته أمة أحب الله من أصدق قلبه ، وألقى في النار لحرصه على توحيده ، وخاضع للملوك والجاسوسين لإعلاء هذه الحقيقة ، وتنتقل بين أرجاء رحمة من الأرض يدعو ويجادل ، طرحت به سياحاته إلى هذا الكنان الثاني ليشيد على أنقاض الوثنية حصناً للتوحيد ، ويسأل ربه وهو يئس أن يجعل من عبده أمة تحمي الحق وترفع رايته ، أكان الناس عجباً أن تهجر هذه الأمة بعدما تخضع عنها الغيب لتبزو المسجد الذي وضع أبوابها ، وتتهافت من حوله بشعار التوحيد ؟

إن الأب الراحل دعا الأجيال لتبزو بيت الله ، وتوثق حبيلها بالعقيدة التي أنشأه ، ووقع في قلوب الألاف المؤلفة صدى هذا البناء ، فالت من كل فج تقول : ليبيك اللهم ليبيك ، ليبيك لا شريك لك ليبيك ، إن الحمد والمنة لك والحمد لك وشريك لك !

فهل تتهم هذه الوفود الموحدة بأنها وثنية ؟ ليست هذه المسألة بعينها ؟ ... ؟

إن بعض الناس لا يدري المعاني العظيمة التي تحف مناسك الحج ، وقد يكون الحجاج أنفسهم من هذا القبيل !

نظرت إلى دالسي ؟ وهو يهوج بحشود كثيفة تطوف بين الصفا والمروة ، وسألت نفسي : إن هذا السعي بين الجبلين الصغيرين شرع ليرسخ عقيدة التوكل على الله ، وإن وهت الأسباب للاداية ، فهل الساعون يقولون ذلك ؟

من قرون خلت كانت هذه البقعة يسودها صمت الوحشة والانقطاع ، لا أنيس هناك ولا عمران ، جامدا إبراهيم عليه السلام بامرأته وابنه الرضيع ، ثم قال : لألم الضعيفة : سأتركك هنا .

وتسألت هاجر دهشة : تتركانا هنا أنا وإسماعيل ؟ ... حيث لا رزق ولا ضرع ، ولا دار ولا دنيا ؟ قال : نعم . قالت : ألم أرك بهذا ؟ قال : نعم ...

- إذن لا يضيئنا إلا وانصرف الأب لا يدري ماذا سيقع له ولا ما سيقع لأسرته ، لقد فقد ما أوحى إليه به وحسباً !

وفقد الزاد والله من هاجر ، وجامت الساعة الحرجة ، وانطلقت الأم بين الرוותين الجائعتين على صلب الواقع تبحث عن غوث للرضيع الذي يوشك أن يهلك .

١٧. ما هي دار العرب، وما هي دار الإسلام؟

يقصد بدار الإسلام جميع الأراضي التي يعمرها المؤمنون بربانك محمد ﷺ ، العاملون بكتابك ورسنتك ، المنفذون لشرائعهم ، والملتزمون بحمت لوائك . ويقصد بدار الحرب جميع الأراضي التي يظلمها الكافرون بهذه الرسالة ، الجاحسون لها ، المعرضون لمذمتها ..

قد تسبح هذه الدار فتحت كل الأوطان التي غزاها فيها الصليبيون القدامى ، أي أوروبا كلها تقريباً وقد تسبح لتحتل كل الأقطار التي أغار منها لانتار عليها ، فوصلوا من الصين إلى فلسطين ، وقد قسم كتابيون ، ووثنيون ، وملاحدون وقد سحبت هذه البقاع وأهلها دار حرب من باب المعاملة بالمثل - كما يتبين ذلك قريباً - فإن أرض الإسلام لم تكن لها حرية عند أعدائهم فلم تصان أرض إسرائيل الأعداء .. ٤٠

على أي أئسو ، الألم لهذه الجفوة القاسية وأسى الإنسانية انقسمت على هذا النحو الدامي ، وتاريخ ملغ بالآحزن والخربا

لم تكن هناك جسور تصل بين الدارين ، ولا صعود تؤمن الانتاع من هنا ومن هناك ، بل كانت هناك تيارات من الجدل والمهاجرة تشمل الأحقاد ، وتورثها للأحقاد ، وليس بين الفريقين إلا ما يقوله الشاعر :

والله يعلم أسأنا لتعجبكم
والله يعلمكم أسأنا لتعجبكم
بعضة الله تفكيكم وتقسوئنا !!

من المشرق عن ذلك؟ قيل إن أذكر ما عدى أذكر ما تله أقطاب القانون الدوس عند الأوربيين وهي أقوال بقلتها عن كتاب المجتمعات الدولية الإسلامية المقرد في معهد الدراسات الغربية العالية بجامعة الدول العربية .

والزائف رجل محايد يره أحد يومنا في ميدان الدعوة الإسلامية هو الدكتور محمد حافظ غام وزير التعليم العالي الأسبق ..

كتب تحت عنوان المصالحة الدولية كانت تستبعد دار الإسلام من حظيرتها

ويعد أحد جده الملك وفجر بتر وزعم ، وحملت الطير حول الماء المائق ، وأحسن الناس ما جده فلقبوا على الكنان بمعزينا

إن ثقة هاجر في الله أثرت الخير ، ولم يظلمها الله بعدما أثرت إليه ..

والترك على الله - مع ضعف الأسباب أو انعدامها - زاد يحتاج إليه الجاهلون ، والضعفون ، ويعتمدون عليه في اليوم الكلال كي يسلمهم إلى غد رايح .

وقد خسرو المسلمون مراكم كثيرة ، كانوا جارين بكسبها لو استندوا إلى الله ، ولكنهم خاروا لضعف بغيرهم ثم حروا في أرضهم !

هل يعني ذلك لساكنين بين الصفا والبرودة ولم عرفوا حقى التوكل عندما يتلون اللور الذي قامت به أم إسماعيل وهي تتحرك جثة وذئبا بين الربوبين؟

قال التاريخ : واضعز الشيطان إرمامي لا تترك أسرتك ، بلأدى القفر ، يقول له : كيف تنفذ أمر في هلاك أملاك ، لأن الله أمركم فقلده إرمامي بعصيات لتفعلها من التراب ، وكانت تلك سنة رضى الجمار فيما بعد !

إن ماسك الحج تنبئة لمواظف المسلمين نحو ربهم وراضيتهم وراضيتهم .

ويكفي أنها تجمعهم من المواقف الأرض مشفا غيرا لا تفريق بين ملك وسوقة ، ولا بين جنس وجنس ، يقبوا في ساحة مرفوعة في مظلمة هائلة ، المهتاف فيها لله وحده ، ولإرجاء في ذاته ولكثير لاسمه ، ولقرابة بين يديه ، وقول العبودية ظاهرا ورضي لربوبية باهرا ومن قبل الشوق إلى عابد الغريب لا ذكر إلا لله ولا طلب إلا منه سبحانه ..

إن الحج من الناحية المروحية أذكاء مشاعر ، وتحديد عاطفة . ومن الناحية الاجتماعية فزعة شينة للترجيحات الجماعية التي كفل مصالحة المسلمين العليا .

ولكي تترك ذلك تبرز كيف جمع المسلمون في لسنة لخدمة ولسته العشرة للهجرة .

في السنة الخامسة رجع الحاجج وقد تلووا تعليمات بقلع علاقاتهم مع الجاهنين بجماداتهم ، وراضيتهم بأشد ما بعدما قيل للطف معهم ..

وفي السنة العاشرة وضمت تقليد إنسانية وأدب عامة تضمنتها الخطبة الجلية التي ألقاها الرسول ﷺ في حجة الوداع ..

فهل يسمع المسلمون شيئا ذا بال عندما يحجون في هذه الأيام؟

ثم يقول المؤلف: ويخلص ما تقدم إلى أنه حتى لصف الأول من القرن التاسع عشر لم تكن الدولة العثمانية أو أية دولة إسلامية أخرى تتبع حقوق القانون الدولي.

هكذا كانت النظرة أيضا حتى بدايات العصر الحديث والواقع أن رجال الحرب والسياسة والقانون، كانوا قبل الحروب الصليبية ومدها ينظرون أيضا ببغضاء عميقة، وقد وثقوا بأنهم كثيرا برسالة محمد رغبة جامعة في تشويهها والقضاء عليها.

محمد مدح لا حيلة له بالبنوة وأبناؤه مخدعون لا يقل منهم إيمان، وليس لهذا الدين ولا دخل فيه حتى سألني أو أنني ينبغي أن يراعي! إنهم خارجون على القانون فمن اعتالهم إذا رأوا هذا الحيف، وهم موقنون بأن الله واحد، وأن رسله

ماتا بفعل المسلمون إذا رأوا هذا الحيف، وهم موقنون بأن الله واحد، وأن رسله كلهم، ومعهم محمد - حى.

إذا اعتبرت أرضهم دار حرب اعتبروا أرض غيرهم دار سلام؟ بلا شك!

كان عباد الأصنام يشتمون من عقيدة التوحيد ويقتلون سماع شيء منها: ﴿وَإِذَا ذُكِرْتُمْ فِي الْقُرْآنِ وَجْهٌ لَكُمْ عَلَى أَعْيَابِهِمْ تَقُولُ﴾ (١)

لكن في علي، رأيكم عنكم أنهم يثيرون منا قبل رأاه ثوبه منا تعلمون؟ (٢)

لا، لن ندعك ندعو ولن ندع الآخرين يشعرونك، والسيف هو الحاكم ووصود القرآن الموقف في هذه العجالة فلا يزالوا يقاتلوكم حتى يودعكم عن دينكم إن استطاعوا؟ (٣)

وإذا تجوزنا الوثنيين إلى أهل الكتاب وجدنا العثماني الهند، والباب أحد.. إنهم لا يطيعون سماع كلمة من الإسلام ثم وقولوا كبروا أو نصارتنا يقتلونا؟ (٤)

كلا الفريقين من عبود وعسارى يريد أن يتسلخ عن ديننا ويتبعنا

إننا باقون أعرف بومس ونمسي، وأرضي لتألفهما الصحيح، وأوسع إلى موضة الله الذي أرسلهما، وأرسل بينهما محمدا..

(١) الإسراء: ٤٢. (٢) يونس: ٤١. (٣) البقرة: ٢١٧. (٤) البقرة: ١٧٥.

فقال: فمنذ نشأة القانون الدولي الحديث كان من القطع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية، ولم الاعتراف بتبعية الشعوب الإسلامية بالحقوق التي يقرها هذا القانون (٥).

وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوروبيون راغبين في اعتبار الدولة العثمانية جزءا من الجماعة الدولية، و«جورجوس» أبو القانون الدولي قال «يجوز عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية» ومع أنه يرى القانون الطبيعي مجزيا لمعقد معاهدات مع أعداء الدين المسيحي إلا أنه نافي بتكامل الأمراء المسيحيين ضد أعداء العقيدة.

وجينيته، هاجم فورانسوا الأول ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليمان القانوني - خليفة العثماني - سنة ١٥٣٥ م مع أن هذه المعاهدة أقامت سلاما بين الوثنيين وأعلنت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التي كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا في دار الإسلام، ومنحتهم امتيازات دينية وقضائية.

ولذلك على أساس أن هذه المعاهدة تقسم تعاونيا بين ملك مسيحي وبين غير المؤمنين!

أقول: وهو تعاوني - في نظر رجل القانون الدولي - لا يجوز بل يجب أن يبقى للتناكر والعداوة بين الفريقين، وأن تحيا القرص لسفك المزيد من الدماء ثم نعلق: ﴿وَلَا تُنَالُوا مَنَّا أُخْرَا وَلَا تُنَالُوا مَنَّا تَعْمَلُونَ﴾ قل يصنع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الحق القليم (٦).

يقول المؤلف: بل لقد لعب فقهاء آخرون إلى أن من الممكن إقامة سلام دائم في أوروبا، على أساس تشكيل الدول المسيحية ضد العثمانيين - أي ضد المسلمين - وظهت عدة مشروعات من هذا النوع.

ويستطرد المؤلف: بعد شرح هذه للمشروعات - فيقول: إن الدولة الأوروبية في تعاملها مع الشعوب الإسلامية كانت تنظر إليها كجماعات معجبة غير جديرة بالتمعن بقواعد الجهاد، ولقد اعتبر الاستيلاء على أراضي المسلمين عملا فاضلا يدعو إلى الفخر. (٧)

(١) جميع المعاهدات الدولية ما عدا دولة بومسها العثمانية والإسبانية وقد أنبأنا فيها في كتابي «الحجج الدينية» - ص ٣١٠، ٣١١.

١٨. ما حقيقة العرب والسلم في الإسلام...؟

ألف «ابن تيمية» رسالة صغيرة عن القتال في الإسلام بدأها بهذا السؤال : هل مقاتلة الكفار بسبب عدوانهم أم لجرد كفرهم؟ ثم أجاب^(١) : في ذلك قولان مشهوران للعلماء :

الأول : قول الجمهور كمالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة وغيرهم ، فهو لا يبرون أن الكفار يقاتلون لا عندناهم لا لاضلالهم

والثاني : قول الشافعي وربما علل به بعض أصحاب أحمد ، وأساس هذا القول أن الكفار يحاربون لسوء عقيدتهم ورجعهم لله وخليفه

قال ابن تيمية : وقول الجمهور هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار فإن الله سبحانه قال ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُوكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾^(٢) وأقولهم حيث يقتسموهم وآخر يومهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين^(٣) فإن انتصروا فإن الله غفور رحيم^(٤) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتصروا فلا عدوان إلا على الظالمين^(٥) الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وأتقوا الله وأعلموا أن الله مع السنيين^(٦) .

فقرله : ﴿ الذين يقاتلونكم ﴾ تعليق للحكم بأنهم يقاتلوننا ، فدل على أن هذا علة الأمر بالقتال . ثم ﴿ ولا تعتدوا ﴾ والعدوان مجاوزة الحد فدل على أن قتال من لم يقاتلنا عدوان ، ويدل عليه أيضاً قول بعد هذا : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ فدل على أنه لا تحيز للريادة .

(١) تصورتها في العبارات بالتحريز الخاضع إلى القوانين .

(٢) البقرة : ١٩٠ - ١٩٤ .

(٣) البقرة : ١٩٠ - ١٩٤ .

لأن ضلوكهم ﴿ وإن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى يبيع بينهم... ﴾^(١) .
ويصل أهل الكتاب جهود المستعبدات لسخن الدين الجديد ، وتوفيق المصنفين له ، وصرفهم ولو إلى الإلحاد أو الوثنية!!

والك لتسرى تفرغ الأسى والغضب في تعليق القرآن على هذا الموقف الوضع ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾^(٢) قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴾^(٣) .

سأذا يصنع المسلمون بإزاء هذه العدوانات الخبيطة؟ إن الذي يطلب منهم الاستكانة لها لا ذرة لديه من عقل...

وما قد طلع العصر الحديث ، عصر عصبة الأمم ، ثم هيئة الأمم ، ومجلس الأمن ، وقيل إن الإنسان حقوقاً ، وللشعوب كراماتاً فهل اختلقت الموارث القذرة في تاريخ العلم وتخلصت البشرية من طبائع الظلم والغبن؟

إن قضية فلسطين تفرج لشر ضرور التعصب ، فقد طرد شعب مسلم من داره ، وحلت محله إسرائيل ، وقالت الدولة الرأية : لقد خالفت إسرائيل لنتقى...

وستتبع فلسطين أمطار أخرى مادامت جزءاً من أرض الإسلام لأنها في نظر الاستعمار القديم والحديث دار حرب !!

إننا لا نحب هذا التقسم ، ولكن غيرنا ألبان إليه وإذا تركه تركناه...

(١) البقرة : ١٩٠ - ١٩٤ .

(٢) البقرة : ١٩٠ - ١٩٤ .

(٣) البقرة : ١٩٠ - ١٩٤ .

وفي هذا الكلام ليس خطير يجب أن يتكشف لكل ذي بصيرة فإن كلمة الشركين هنا فرت في الآيات السابقة والآيات اللاحقة بأنهم قوم فاضح عدوانهم حتى بلغ حداً لا يطاق ، وأنهم جماعة من الفتناء القادرين معرفهم عندما تقرأ الآية التي استنتجت من نصان مساؤمهم من الشركين ، وفي قوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ عَقَبُوا مِنَ الْمُنْشَرِكِينَ لَمْ يَنْتَهِ عَنْهُمْ شَيْئاً لَمْ يَقُولُوا عَلَيْكُمْ آمَنَّا﴾ (١)

يعني أن الشركين الملائزم لهم قوم قصروا حقونا وقاموا بأعمالنا ، واحتجوا بعبودنا .

ولكى تزداد بهم معرفة نقرأ وصفهم في الآيات الالية : ﴿كَيْفَ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ لَا يُخْرِجُكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُؤْخِرُكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْمُرُ قُلُوبَهُمْ وَيَاخُذُكُمْ فَاغْتِرَابًا﴾ (٢) فاشترؤا بآيات الله شيئاً قليلاً فصدروا عن سبيله بأنهم ساء ما كانوا يفعلون (٣) لا يوثقون في مؤمنين إلا ولا ذمة وأوثقهم المعتدون (٤)

مولاء المعتدون هم الذين أصلت الحرب عليهم في صدر سورة براءة ، وأعطوا أربعة أشهر مهلة ليرأوا ما يصنعون بأنفسهم فهل هذا الحكم يتطابق لم يخالف أية ﴿فَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقاتِلُوكُمْ﴾ .

إن القول بالنسخ لا قتال للمعتدين لا يساغ له أبداً ، ولا يدل على نفيه في القرآن الكريم .

قال في بعض الأحوة : على رسلك ، إن الإطار الذي تريد وضع الجهاد الإسلامي داخله قد محوه آيات الجهاد المطلق ، الجهاد الذي يخاصم القملاً حيث كان ويريد غسل الأرض منه ، ولا داعي لهذه التقييد التي تذكر . (٥)

قلت : أين هذه الآيات ألم تقرأ قوله تعالى يخزي طلاب الآخرة بالجهاد : ﴿لِلَّذِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَخْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٦) إن هذه الآية تحت على خوض الحروب انتصر المرء فيها أو اليوم وصادم يريد إعلاء كلمة الله الله أجزاً

(١) النساء : ١٣٨ .

(٢) التوبة : ١١٠ .

(٣) التوبة : ١١٠ .

ثم قال : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ لِلنَّبِيِّ تَحِيلَ السَّلَامَ عَنْ يَدِهِ قَبْرًا كَمَا كَانَ لِلشُّرَكَاءَ يَفْعَلُونَ بِالْمُتَضَلِّينَ وَمُعَانِقَتِهِمْ حَتَّى تَكُونَ قُورَاهُمْ وَيَجْعَلُوا مِنَ النَّبِيِّ وَلَمْ يَقُلْ سَبْحَانَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَسْلَمُوا﴾

﴿وَيَكُونَ لِلدِّينِ لِلَّهِ﴾ وهذا يحصل إذا ظهرت كلمة الإسلام وكان حكم الله لرسوله غلباً ..

ذلك ما جاء في الكتاب الكريم ، أما ما جاء في السنة فقد صرح أن النبي ﷺ في بعض غزواته على امرأة متزوجة . فكانه كره ذلك . وقال : «ما كنت هذه تفتننا» فليسا أن المرأة في تحريم قتالها أي لم تكن تقتل .

وإذا كان على الصلوة والسلام يرضى بعدم التعرض لمن ليس من شأنه القتال ، روى أبو داود أن النبي ﷺ كان يوصي الجيش المذهب إلى المركة : «انطلقوا باسم الله ، وبالله ، وعلى من رسول الله ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ، ولا صغيراً ، ولا امرأة ، ولا تقبلوا ، وضمو أعضائكم وأصمعوأوا وصنوا إن الله يحب المحسنين» .

وإذا أعدت طائفة أن هذه الآية منسوخة ، قال ابن تيمية : وهذا رأي ضعيف ، ودعوى النسخ تحتاج إلى دليل وليس في القرآن ما يناقض . الآيات التي ذكرناها بل فيه ما يوافقنا فمن أين يجهى النسخ الصحيح أنها محكمة وإن من ليس معناه نفسه القتال كالأحرار والشيخ الفاتة ، ولزمى والكافي والجانبين ، فإن هؤلاء لا يقتلون وهذا حكم بات غير منسوخ ، وهذا قول جمهور العلماء .

ونحنى نحن في مناقشة القائلين بشيء من التفصيل يريد الحق وضوحاً .. من أحبب ما قرأت أن قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقاتِلُوكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ (٧) النسخة التالية مباشرة ﴿وَقَاتِلُوا حَتَّى تَقْتُلُوهُمْ﴾ (٨)

وهذا ضرب من اللغو كان يجوز إنبائه ، لأن القاتل قطع جملة من ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرِجُوهُمْ﴾ (٩) فترسب بها السياق كله على نحو لا يسوغ في صياغ عاقل ، ولذلك تجاوز هذا الرأي ..

المليل الذي يعتمد عليه القائلون بالنسخ ما يسمى بآية السيف يعنون مثلاً قوله تعالى : ﴿وَأَقْبَا نَسْخَ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ قَاتِلُوا الْمُنْشَرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (١٠)

(١) التوبة : ٥ .

من أسلم في مدينة ومكانه ونشروا الرعب في قطاع واسعة كان مساهمهم يحكمونها ..

وقد حاول المسلمون أن يوقفوا هذا التقدم ، وأرسلوا جيشاً إلى مؤتة ووجه الرومان ، ونقل القواد الثلاثة الذين حاولوا الصمود به ، ولم يجد المسلمون بقاءً من الانسحاب ، فدخلوا إلى المدينة وقتلهم كبيرة .

وارداد الذين بقاء ، فإن تبار الدعوة ، وقد تمت تأثير السطوة الرومانية المفردة ولم ير التي مناصها من إعداده أكبر جيش في تاريخ الدعوة لينال الإمبراطورية المجوز ولبنها حدودها إن الحرب كانت واجبة حتماً ، ولم تكن غارة عشية ، وسوف تزيد الأمر وضوحاً فيما بعد .



قلت : لعلنا لو قرأت الآية التي عليها مباشرة لعلمت أن هذه الحرب لم تكن عدواناً بل دفاعاً للدولان وكسراً للظلمة

ليس يقول الله سبحانه في حفر الهيم خوض هذه الحرب : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ عَلَيْهَا إِنَّمَا لِجَهَنَّمَ لَنَا مِنْ ذَلِكَ رُبْعٌ وَرُبْعٌ لَنَا مِنْ ذَلِكَ رُبْعٌ وَرُبْعٌ لَنَا مِنْ ذَلِكَ رُبْعٌ ﴾ (١)

إن هذا القتال من أنسرف سافر على سطح الأرض بالنسبة إلى جمهور المسلمين ، فكيف يوصف بأنه قتال لم يرتبط بقيد معين ؟

فصمت قليلاً ثم قال : خدا آية أخرى قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَخَرِّبُوا الرِّقَابَ حَتَّىٰ إِذَا أَخْلَقُوا قَتَلُوا أَوْ نَالُوا ۚ ﴾ (٢)

قلت : هذه آية تعصف ما يجب عند إلتحام الرجال في المعركة ، ولا تحدث عن سبب القتال ، ومع ذلك فهو سلماً بوجهه نظرك فإن أول السورة التي ذكرت فيها الآية يحدد من هو العدو الذي نحاربها

أول هذه السورة : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَعْنَتُهُمْ وَأُضِلُّوا أَعْيُنُهُمْ ﴾ (٣) والصد عن سبيل الله يعني تعويق الدعوة عن الناس في مسارها ، وإزالة المؤمنين الذين تتبرح صولهم بها ، وهذا عدوان حقيقي !!

قال : خدا آية أخرى والآيات كثيرة : ﴿ وَأَنْزِلُوا جُنُودًا وَمَنْعُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُتَّقِينَ ﴾ (٤) قلت : هذه الآية بين عشرات من الآيات التي برزت في غزوة تبوك تستثير المؤمنين كي يقتلوا الأعداء ، ويحدوا من طغيان الصراية شمال جزيرة العرب ، ومعروف أن الرومان قتلوا بعض

(١) قتال: ٤ .
(٢) محمد: ١ .
(٣) القية: ٤١ .